باحثة
البادية

ZIYADAH

BAHITHAT AL-BADIYAH

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

باحثة
البادية

ZIYADAH

BAHITHAT AL-BADIYAH

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073507111

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

Ziyadah, Mary

باحثة البادية

بحث انتقادي

(بقلم الآنسة)

مي

حقوق الطبع محفوظة

طبع في مطبعة المقتطف بمصر
سنة ١٩٢٠

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

(RECAP)

2212
.7013 4
.994

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY



—﴿ باحثة البادية ﴾—

وهي المرحومة ملك حفني ناصف حرم عبد الستار بك الباسل

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

مقدمة

لما اقترحتُ على كاتبة الفصول التالية (١) ان تتحف المقتطف بخلاصة ما كانت باحثة البادية تنادي بهِ لم انتظر انها تعنى بقراءة كل ما كتبتهُ الباحثة وما يضارعهُ مما كتبهُ قاسم بك امين وتعرض خلاصة ذلك للقراء على صورة تختلب الالباب بحسن بيانها وبديع انتساقها وقوة حجتها وتكون انموذجاً جديداً للنقد في العربية بالاسلوب الذي جرت عليه. فانها مهدت لكل فصل من هذه الفصول وختمتهُ وعلَّقت عليهِ من آرائها الخاصة واقوال أئمة الكتَّاب بما يدل على واسع علمها وبُعد نظرها وعلى انها جارت اكتب الكتَّاب الاوربيين في هذا النوع من البحث والانتقاد. ولا اتذكر انني رأيت حتى الساعة من ضارعها فيهِ من كتَّاب العربية ولا من فاقها من الاوربيين. والظاهر ان هذا رأي كثيرين غيري حتى اقترحوا عليها جمع هذه الفصول وطبعها على حدة ففعلت واضافت اليها كثيراً مما له علاقة بهذا الموضوع

(١) وهي الآنسة ماري زياده كريمة الياس بك زياده صاحب جريدة المحروسة التي توقع ما تكتبه عادة بكلمة « مي »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

وبعد فليس غرضي من هذه السطور التنويه بكاتبة هذا الكتاب لان القراء يعرفونها كما اعرفها بل ابداء رأيي في كتاب اخرجتهُ للناس ناظراً اليهِ من اربعة اوجه وهي الاسلوب والاحاطة والتعليق واللغة . وسأكتفي بالاشارة الطفيفة الى كل وجه منها والألزمني ان انشىء على الكتاب كتاباً اوسع منهُ ان استطعت

(١) الاسلوب — اسلوب الكاتبة في هذه الفصول غاية في الإحكام . انظر الى التمهيد الذي عقدت له الفصل الاول والثاني فعرّفت القراء بنفسها و بباحثة البادية وبما بينهما من الرابطة الادبية. ثم تدرجت الى التفصيل فوصفت وجه الباحثة وعقلها واسلوبها في الكتابة — صوَّرتها لعين القارىء كما كانت تراها بكل معانيها حتى يحسب من يقرأ ما اقتبستهُ من اقوالها انهُ يسمع شخصاً يكلمهُ بصوتهِ الحي ويعرف هويتهُ واميالهُ . وجرت على هذا الاسلوب في كل فصل من هذه الفصول فانها مهدت له تمهيداً فلسفياً حسب موضوعهِ لتتدرج بالقارىء اليهِ وتعدّ انتباههُ الى ما فيهِ من رأي او انتقاد او نصح او امر بمعروف او نهي عن منكر . ثم نثرت اقوال الباحثة المرتبطة بموضوع ذلك الفصل وشرحتها وعلّقت عليها ما يزيدها بياناً او يزيل ما فيها من شبهة او يخالفها فيما ترى مخالفتها فيهِ . ولما استطردت الى المقابلة بينها وبين قاسم بك امين جرت على هذا الاسلوب عينهِ في الفصلين اللذين عقدتهما لذلك . ولعلها انصفت قاسم بك امين مثل اعز اصدقائهِ الذين كتبوا عنهُ . وما غرضها الاَّ انصاف الموضوع الذي تكتب فيهِ والغاية التي ترمي اليها وهي اصلاح شأن المرأة

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

(٢) الاحاطة — وأي احاطة فانها بحثت فيما كتبتهُ باحثة البادية كامرأة مسلمة مصرية كاتبة ناقدة مصلحة . ومن الغريب ان عقلها الجامع البحّاث اشار الى هذه الصفات كلها قبلما كتبت سطراً من هــذه الفصول كأَنها نظرت بعين بصيرتها الى كل ما كتبتهُ باحثة البادية فرأَتها تتجلى فيه بصفاتها المذكورة آنفاً فلم يتعذر عليها ان تستخلص منهُ حقائق كثيرة ايَّدت نظرها . احاطت بالموضوع من كل جهاتهِ وعززتهُ بآراء الباحثــة واقوالها وبما مهدته لها وعلقتهُ عليها . ولا اظن انها تركت زيادة لمستزيد . وكل من عانى البحث في مؤلفات الغير المتشعبة الشؤون يعلم ما في الاحاطة بمناحيها من المشقة . ومَن مِن الكتَّاب لا يود ان يتاح لهُ مثل الآنسة مي تحيط بمــا كتبهُ وتشرحهُ وتعلق عليهِ تعليق انصاف ولو كان انتقاداً ولــكن هيهات فاني لم ارَ حتى الساعة كتاباً مثل هذا في العربية

(٣) التعليق — هذا في نظري من ابلغ ما كتبتهُ الآنسة ميّ فان مدركات العقــل مهما كثرت لا تفيض بقوتها وغناها ومجدها الاَّ لدى احتكاكهِ بعقل آخر مضاه لهُ . حينئذ تنتبه النفس الى ما خزنتهُ من المعارف وما وصل اليها بالارث من الآباء والجدود وتنهض القوة الناطقة قوة الاستحضار والتمثيل والقياس وتنهض البداهة وتنبه المبدأ الفيَّاض الى سرد الامثلة والادلة واقامة البراهين الخطابية والمنطقية وتأييدها بالحقائق العلمية والمسلمات العرفية والشواهد الاجتماعية . وهذا كلهُ ظاهر في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب . فهو كتابان كتاب باحثــة البادية او خلاصة ما كتبتهُ في موضوع النساء وكتاب الآنسة ميّ الذي جمعت فيهِ هذه الخلاصة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وشرحتها وعززتها وعلقت عليها زبدة معارفها الواسعة وختمتهُ بالمقابلة بين باحثة البادية وقاسم بك امين . وألحقت بهما دار بينها وبين باحثة البادية من المراسلات.والكتابان والخاتمة في موضوع واحد هو اهم المواضيع الاجتماعيــة في هذا القطر ألا وهو المراة المصرية وكيف تصلح شؤونها فتصلح بها البلاد

(٤) اللغة — اللغة معربة خاصة بالكاتبة في اسلوبها دالة على ذاتيتها. وكذا تكون لغات كبار الكتّاب . يرى القارىء لاول وهلة ان الكاتبة خرجت عن مألوف كتّابنا الاقدمين والمحدثين في كثير من انواع المجاز والتعابير كأن قريحتها الوقادة رقت بها فوق مألوف العادات وعقلها المبتكر حلق بها في سماء الخيال شأن كل نابغة في عصره فانهُ يكثر الابتكار ويكره التقليد

واذا كان بعض استعاراتها مقتبساً من لغات أوربية فذلك ليس بدعة في العربية . ولا هي أول من فعل ذلك بل قد سبقها اليهِ جماعة من اساطين الكتّاب مثل الجاحظ والصابي وابن المقفع وابن خلدون فزادوا في غنى العربية بما أضافوه اليها

وهذا شأن كل الذين ابتكروا في لغاتهم مثل كارليل ولورد افبري وفكتور هيغو ولامرتين ومثــل الكتّاب الرومان الذين كانوا يحسنون اليونانية قبلما يكتبون لغتهم.وادخال الجديد في اللغة ضروري لحياتها والاَّ انحطت وتلاشت شأن الاسر التي لا يتزوج أعضاؤها الاَّ في بعضهم

والى القارىء مثلاً واحداً مما كتبتهُ في وصف باحثة البادية كــكاتبة حيث قالت

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

«وما حاجتي الى الكلام عنها كاتبة؟ اننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الكتابية مكتفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية لاثبتنا على الورق ما قد سبق وقرره حكمنا الصامت وهو انها كاتبة كبيرة . يطلق الناس عادةً اسم « الكاتب الكبير » على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون . ان من حملة الاقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير. لانه ليس كاتباً على الاطلاق . انه ينقصه ما يسميه الافرنج « قماش الكاتب »أي السر الذي يقود الفكر الى اختيار الالفاظ الصائبة ويعلم اليد صياغة الجملة الملائمة . وينقصه خصوصاً ذلك اللهيب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام

ما هي الكلمة ؟

الكلمة التي تعين الحركة والاشارة والصوت واللون والانفعال . الكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها . ما هي وما هو سر انتخابها ؟ الابجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة الا بالكلام فما هي تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استعدارتها والشفاه وحدود ثناياها والآفاق واتساعها اللانهائي والليل وعمقه وكواكبه والنفس وعجائب خفاياها؟ كيف تنبض في الالفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب وأنين الشكوى ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتز الالفاظ تارة كالاوتار وتولول طوراً كامواج البحر العجاج . وتهمس حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطلق من سحيق الدراري ومبهم الآمال القصوى ؟

قال فكتور هوغو أن الكلمة كائن حي (١) وقد تكون خالقاً ساعة تجعل المخيلة ترى ما لا يرى . وتنظم القرطاس أفقاً مفعماً بالكائنات الجميلة . وتصبح سحراً يصير الغائب حاضراً والعدم وجوداً

ان للافصاح عن الفكر أساليب جمة ولكن لا يصلح للكاتب الواحد الا اسلوب واحد . وهو الذي يتفق مع ذاتيته

ان افلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظل ينسخ كتابه « الجمهورية » الى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً واصلاحاً . ذلك لان الكتابة التي يراها الكثيرون مسألةً هينة أكثر الفنون دقةً وعسراً . ولا اظن اكتشاف القطب أصعب على

(١) "Car le mot, qu'on le sache, est un être vivant"

Victor Hugo (les Contemplations)

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

الرسالة من اكتشاف الاسلوب (هذا القطب الآخر) على الكاتب الذي عنده شيء يقوله لان نفسه تفيض به وتحشه على اعلانه . كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة. فكيف يتيسر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبع اداة القلم خطوات النفس الوثابة الكثيرة الاهواء في تموجها وتحنيها المباغت من الفرح الى الحزن ومن التحنان المذيب الى النقمة البركانية ؟ ان ذلك لسر تملص من القواعد والنصوص وترفع عن ان تلقيه الضمائر الى الالسنة . وهوكل مقدرة الكاتب أوكل ضعفه»

فاثباتها الصمت للحكم والعمق لليل والنبضان للحياة والانين للشكوى والرنين للظفر والولولة للالفاظ والتموج للنفس وقولها ان من حملة الاقلام من لهُ مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ولا بالصغير وانهُ قد يكون بين سطور الكاتب لهب خفي ينشر بينها اشباح النور والظلام وان البعض يستطيعون ان يرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها والشفاه وحدود ثناياها والآفاق واتساعها اللانهائي وانهُ لا يصلح للكاتب الواحد الا اسلوب واحد يتفق مع ذاتيه ثم قولها ان من يحاول الوصول الى هذا الاسلوب محاولة يهوي في دركات التصنُّع والتكلُّف وتتعثر قدماه وقلمهُ بذيول الزوائد والحواشي الحاضرة بين المتداولات كالحلوى على اطباق حلواني العيد أو يداهمهُ مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئه الشقي بانهُ حُكم عليهِ بسف التبن » كل ذلك من المعاني التي تكاد تكون مبتكرة في العربية وقد ايدتها باقوال أعظم شاعر فرنسوي وا كبر فيلسوف يوناني

حسبي هذا الشاهد من فصولها للدلالة على بلاغتها في التعبير عما في نفسها وعلى ابتكارها المعاني وافراغها في قوالب جديدة واستعارات انيقة والاَّ لزمني ان انقل اكثر ما كتبتهُ تمهيداً

Digitized by Google   Original from PRINCETON UNIVERSITY

وتعليقاً وشرحاً وتفصيلاً . فهل قرأت كتب مشاهير الكتّاب في اوسع اللغات الاوربية التي تحسنها فرسخ في ذهنها كثير من اساليبهم وتخيلاتهم التي لم نألفها أو نشأت نسيج وحدها نظرها يخترق حجب الغيب وجواهر الهيولى فيرى فيها ويؤلف منها بدائع الصور ونفائس التراكيب أو هي مجموعة من الاثنين الخلقي والمكتسب. قريحة وقادة تختلق الصور كما تشاء . وعقل مستقل يكره القيود الأ ما وقع عليهِ الاجماع . وذاكرة كثيرة الحفظ سريعة الاستحضار تسابق قلمها الى تصور ما يتخيلهُ ذهنها مبتكراً كان أو مقتبساً

واني اعدُّ الساعة التي اقترحتُ فيها على الآنسة ماري زياده ان تجول في هذا المضمار من اسعد الساعات التي مرت في حياتي . وبهذه الكلمات اقدم كتابها الى القراء

يعقوب صروف

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

فهرس

	صفحة
باحثة البادية (ترجمة حياتها)	—
كيف عرفتها	١
المرأة	١١
المسلمة	٢٨
المصرية	٤٣
الكاتبة	٥٥
الناقدة	٧٠
المصلحة	٨٩
قاسم امين وباحثة البادية (المقابلة بينهما)	١٠٩
قاسم امين وباحثة البادية (تابع وخاتمة)	١٢٩
بين كاتبتين : الى باحثة البادية	١٤٦
« « : الى مي	١٥١
« « : الي مي	١٥٢
« « : الى باحثة البادية	١٥٦
الساعة المفقودة	١٦٢
الى مي	١٦٧
باحثة البادية (مرثاة)	١٧٥
تأثير باحثة البادية	١٨٠
تأبين باحثة البادية (خطبة)	١٨٣

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

باحثة البادية

هي مَلَكْ هانم كريمة اللغوي المحقق المرحوم حفني بك ناصف الذي شَغَلَ المناصب العالية في وزارة المعارف والقضاء. ولدتْ بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٦ ، وتَلقَّت مبادىء العلوم في مدارس أولية (مكاتب) مختلفة، ثم دخلتْ المدرسة السنية في اكتوبر سنة ١٨٩٣ وحصلَت منها على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وهي أول سنة تقدّمت فيها الفتيات المصريات لاداء الامتحان للحصول على تلك الشهادة. ثم انتقلت إلى القسم العالي في المدرسة المذكورة وحصلَت على الشهادة العالية (دبلوم) سـنة ١٩٠٣. واشتغلت بعد ذلك بالتعليم في مدارس البنات الاميرية

وفي ٢٨ مارس سنة ١٩٠٧ اقترن بها صاحب السعادة العربي الصميم عبد السَّتار بك الباسِل وَجيه قبيلة الرِّماح بالفيوم

وتوفيت بالحمى الاسبانيولية في القاهرة ليلة الخميس ١٧ اكتوبر سنة ١٩١٨

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

باحثة البادية

(١)

كيف عرفتها

في مثل هذا الشهر (يناير) منذ سنوات خمسٍ اجتمعت بباحثةِ البادية للمرّةِ الاولى . كانت تقضي فصل الشتاء في حلوان وقد دعتني اليها على غير معرفةٍ سابقة سوى معرفةِ القلم ، بعد أن تبادلتُ وإياها بعضَ الرسائل في الصحف السيّارة . دعتني على اثر رثائي ساعة فقدتها يومئذ فكتبتْ تقول: «اني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتّها. رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسحَ دموعك لاني أحبُّ دائمًا أنَ امسحَ دمعةً المحزونِ . تعالي اليَّ لتأخذيها فانها احست بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك وتعارُفنا . عثرتْ عليَّ وعثرتُ عليها لنؤكد لك انك وجدتِ الصديقة التي لا تخون [١]»

تُرى ما الذي دفعها الى ذلك ؟ أهي النفس العليمةُ التي لا يفوتها سرٌّ من الاسرار ذكرت أنهُ قدّر عليَّ ان احمل القلم

---

(١) « الساعة المفقودة » . نشرت في الم[illegible]سة

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

يوماً لا أبكي المرأة الجذّابة واستخرج امثولة من كتابات المرأة الخالدة ؟

ذهبتُ اليها والشفق يضرم نارهُ في قلب الأفق والسحبُ قد انقلبت هنا لهيباً ، وهناك انواراً ، وهنالك ألواناً . ايُّ نفس لا ترتعشُ اغتباطاً امام جلال الغروب ؟ والغروب في مصر أبرع جمالاً منهُ في أيّ قطر آخر وهو يبرز على أبدع ما يكون للسائر في قطار حلوانْ. مشهدٌ رائع لا ينساهُ حياتهُ من رآهُ مرةً واحدةً . فيهِ تبدو الاهرام كأنها ما تحجّر من فؤاد الايام وبُعدُها في أطراف الأفق يُكسبها جمالاً غريباً شفّافاً كجمال الاحلام

على أن اغتباطي بمنظر الغروب في ذيّاك المساء لم يكن ليلهيني عما ينتظرني من جديدٍ ولا ليحبس عن ذهني اسئلةً تتعاقبُ على فكر المرء قبيل اجتماعهِ بشخصٍ غريب. انما نحن نميل الى الغريب ونميل عنهُ في آن احد. واذا دَنَت لحظةُ موعد ضُرِب بينهُ و بيننا للمرة الاولى فاننا لا ننفكُّ متسائلين على غير ارادةٍ (وغالباً على غير معرفة) منا : «تُرى كيف هو ؟على أي قرار يوقّع نغمة صوتهِ والى اي الالوان يقربُ لون عينيهِ؟

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

كيف يبتسم ويتكلم ويتحرّك ؟ بل كيف يفتكر ، واي الافكار متغلب عليهِ ، وعلى اي الاساليب تتكوَّن الفكرة في خاطرهِ ؟ تُرى هل يتفاهم منا الروحان بلغتهما المختلفة عن لغة الشفاهِ الاصلاحيــة ، أم نحن الساعة ملتقيان ليعلم كلٌّ منا اننا لسنا من وطن معنويّ واحد وان بين مزاجينا هوةً لايزيدها التعارفُ الا اتساعاً ؟ »

أسئلة إنما ينحصرُ الجواب عنها جميعاً في النظرة الاولى التي يتبادلها الغريبان رجلين كانا او امرأتين او رجلاً وامرأةً ، او خادماً ومخدوماً ، او نظيراً ونظيراً ، او كبيراً وصغيراً . وتلك النظرة تُسفر دائماً عن احدى عاطفتين اثنتين تتفاوت من كلٍّ منهما الدرجات: فإما انجذابٌ واما تقلّص، والانجذاب ميل والتقلّص نفور

كنتُ اتدرّج من هذه الاسئلة الى غامض المعاني التي يحاول علماء النفس استكناهها وأردفها بهذا السؤال الواضح: « أهذه المرأة التي سأصافحها بعد هنيهــة هي هي الباحثة التي تنشر على الناس افكارها ، ام صدق الزاعمون ان ليس لها من فصولها الا التوقيع كما هي الحال عنـد بعض السيدات

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

الشرقيات اللائي تعمَّدن التظاهر بالتفكير والتعبير ؟ »

والجواب عن مثل هذا السؤال قد يظهرُ في نظرة واحدةٍ اوبسمة ، او حركة يأتيها الغريب فيستجلي منها اللبيب حياة ذلك الغريب وقواهُ الخفية وما يمكنهُ القيام بهِ من الاعمال . هذا على شرط ان يكون الاثنان من درجة معنويةٍ واحدة او "attuned" كما يقول الانجليز

***

وصلتُ اليها وقد تزركش رداء الليل بوشي الكواكب ثم نشرتُ في الغدِ وصف زياتي في احدى الصحف الفرنساوية(١) فاستعين الآن ببعض ما جاء في ذلك المقال لاني كتبتهُ تحت تأثير المقابلة الاولى . وهاك وصف غرفة الاستقبال :

« قضينا ساعة ونيفاً في غرفة الاستقبال . واللون المتغلب في تلك الغرفة هو الاحمر العقيق تتخلله نقوش خضراء فستقية ومزيج الوان اخرى تبدو واهية الخطوط تحت نور الكهرباء . ولم يكن ثمت ما يخبر عن عبوس الحجاب الاسلامي في تلك « الفيلا » الاوربية بين اثاث دقيقة الصنعة ومقاعد فصلت على احدث طرز مع ما نثر على الطاولات النحيفة القوائم من الاشياء الفنية الصغيرة التي لا اسم لها وهي من صنع عمال المغرب أو من قلدهم من عمال المشرق الحاذقين

كان هتافها الاول هتاف ترحيب وكلمتُها الاخيرة كلمة حبٍّ . واستغرقت الوقت بين طرفي الزيارة مناقشةٌ وديةٌ في

(١) نشر في جريدة « البروجره » الفرنسوية

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

بعض ما عالجتهُ الباحثة من الموضوعات كتعليم البنات ، والحجاب ، والسفور ، وكانت تحدثني بصوتٍ أغنّ الرنين تملأهُ لهجةُ الواثق ممّا يقول المعتقد بصلاح فكرهِ العالم ان آراءهُ مفيدة كلّ الفائدة لو كان لها الناس تابعين. واذا وجدت الكلمة العامية ركيكةً اذا ما عُبّر بها عن بعض المعاني استعملت الكلمة اللغوية مكانها بنطق عربيّ فصيح مستشهدةً بابياتٍ شهيرة وحكم سائرة تعزيزاً لآرائها ، وعلى وجهها هيئة المحققِ الجاد وفي عينيها نظرة بعيدة . وإن نحن على هذه الحال اذا بقريبةٍ لها قد هبَطت علينا من الصعيد على غير انتظار. وكانت باحثة البادية سبقت وقالت لي حين وصولي : « رغب بعض صديقاتي في المجيء للتعرُّف بكِ على اني اردتُ ان نكون وحدنا في اجتماعنا الاول »

ولكنها لم تُبدِ انزعاجاً بل ظهر السرور في وجهها وتحولت المرأةُ المفكرة دفعةً واحدةً امرأةً ضحاكة كأنما لم تكن هي التي كانت منذ هنيهةٍ تستشهد بالمعري والمتنبي . وقد ذكرتُ ذلك في مقالي الفرنساوي :

« جاءت قريبتها من الفيوم فأخذتا تتكلمان عن اشياء يعرفانها وتهمهما معاً . فذكرتا الاقارب والاصدقاء والصديقات والجارات والمعارف وهما تحلفان تارة

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

بالله وطوراً بالنبي محمد مشتركتين في الضحك والتنكيت بين جملة واخرى. الزائرة تحدث عن الدير والباحثة تستزيدها من التفصيلات عن نساء الحي والمواشي والخياطة المصدورة والحمى المتفشية في البلد. ثم انفقتا في الثناء على البقرة الحلوب وهبط صوتهما الى قرار الاسف لذكر البقرة الصغيرة المتوفاة في الاسبوع السابق . فقلت وقد اسفت لاسفهما :

— « أماتت تلك البقرة المسكينة ؟ »

اجابت باحثة البادية : « ماتت والله ! وكنت احبها كثير قوي »

ولكن لا يغرننا هذا الانقلاب السريع من جليل المعاني الى تافهها ، ولا تخدعنَّا هذه الضحكة الشبيهة بضحكة فتيات المدارس . ان لهذه المرأة كالكلِّ من الافراد النوابغ شخصياتٍ متعدّداتٍ تظهرُ كلٌّ منها في حينها . وهاك وصف ضحكتها في المقال الفرنساوي السابق ذكرهُ :

« انها تضحكُ بسرعة وسهولة وفي صوتها رنين كرنين أصوات الاطفال . تضحك بكلّ قواها كمن يضحك من قلب لم يخالطه بعد معنى الكآبة ولم تنزل بساحته وطأة الهموم . وما أشدّ ما يسر السامع بهذه الضحكة المملوءة طيبة وذكاء ولولا ان خيالات الفكر والكآبة تتمايل على جبهتها السمراء الجميلة لتساءل المرء أهو في حضرة امرأة ذاقت طعوم اللوعة والالم ؟ ... »

*
* *

نعم انها التاعتْ وتألّمت . أقولُ ذلك وانْ لم أرها يوماً الاّ بين مظاهر السعادة والهناء . بل لم أُقابلها مرة الاّ وهي صبيحةُ الوجه ، طليقةُ المحيا ، برّاقة العينين ، والبسمةُ تلعبُ على شفتيها . لكنّ هذه كلها ستائر تنسدلُ على حركات

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الحياةِ الحقيقية حاجبةً عن النواظر معانيها العميقة . وهل في وسع من ذاق مرارة الفكرِ وحلاوتهُ ان يكون سعيداً بالمعنى الذي يقصدهُ البشر ؟ واذا فرضنا انهُ حاز السعادة على ذلك القياس المألوف ، أتكفي هذه السعادةُ الاصطلاحية لحمايتهِ من لهيب الألم النفسي ؟

ولكن لا نتقمنَّ على الالم فهو مغذّى الذكاء ومهذّبُ الشعور ، ومنبّهُ الادراك الى معانٍ جمة وأساليب فكريّةٍ كثيرة . انما صاحب العواطف القوية شقيٌّ اذا ما ذكرنا أنَّ هذهالعواطف تعذبهُ في كل حين وتظلُّ هامسةً لهُ بالشكوى حتى في أعذبِ ما ينالهُ من لحظات السعادة النادرة . لكنَّ هذا العذاب بعينهِ هو ممزّقُ غشاء الجهل والانانية عن بصر فريستهِ ، وهو مستنزلُ الوحي على فؤادٍ نهشتهُ براثنهُ حتى أدمتهُ . هو مُفجّرُ ينابيع النهى . هو يُعطي القلم قوةً تُبدعُ من الكلام سيوفاً وبروقاً ، ويحبو اللسان بلاغةً تمتلكُ القلب لانها تخابرهُ مباشرةً بلا وسيط . وما ذا عسى ينفع الحديثُ ان لم يكن مصدرهُ القلب ؟ وما هي قيمةُ الاصلاح ان لم يكن ناشئاً عن إدراكٍ تكوّن ليس في العقل وحدهُ بل في

العواطف المسجوقة وما تُنبّهُ اليهِ من احتياجٍ كثير ؛ ونظرة الكاتب ان لم يطل فيها خيال القلب المتوجع ليست الاّ بالنظرة الباردة القاصرة التي لا تنفذ الى ما وراء قشرة الظواهر ويظل باب النفس ، باب الحقيقة ، أمامها مغلقاً مجهولاً !

انّ مزاج باحثة البادية العصبي الصفراوي وجنسها النسائي، وقوة عواطفها وحدّة ذكائها — كل ذلك كان مشتركاً في تكوين طبيعتها السريعة الانفعال ، وواضعاً فيها قابليةً شديدة للالم واستعداداً كبيراً لمشاهدة الاشياء والحوادث من وراء غشاء قاتم . اقرأ كل ما كتبتهُ تجد انيناً متواصلاً يخترقهُ من اوله الى آخره . وذلك الانين الذي يكاد يكون رِكزاً ينقلب ساعة الوجع الشديد زئيراً وعويلاً

هذا المزاج النسائي وهذه الذاتية الادبية، وهذه الكاتبة التي لم تدوّن افكارها (على ما يظهر لي من لهجة فصولها) الا تحت التأثير وفي ساعة الانفعال ، هي ما اقصد درسهُ في هذا البحث الذي قسمتهُ الى اجزاء ستة هي : المرأة، والمسلمة، والمصرية ، والكاتبة، والناقدة، والمصلحة . لأن في هذا التقسيم تسهيلاً كبيراً لتفصيل الصفات الادبية والمميزات الكتابية.

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

وسنرى في الفصول الآتية كيف تبرزُ « الباحثة » قيمة في كل جزء من هذه الاجزاء . ولنا من كتاباتها ما يسند اليه الرأي ويستخرج منهُ التعليل . بل لنا منها ما يبعث بالاشعة الى تلك الصفحات التي كُتبت عن البيئة المصرية ولها ، فيمكننا ان نقدّر باحثة البادية قدرها ونحب من وراء حجب الموت تلك الذاتية النادرة التي مرت في الحياة كحلمٍ جميل

اعترف باني في حاجة الى بعض المجاهدة لأتغلب على على نفسي مبعدة من امام ناظري خيالها البسام ، ومحاولةً نسيان المرأة كما عرفتها كيلا اتأثر الا بفكر الكاتبة المنشور على الصفحات البيضاء خطوطاً سوداء . غير اني اعود فاقول ان التأثر بمعرفة المرء الشخصية ليس بالامر المذموم بل هو غزير الفائدة. لأن الذين يعرفون كاتباً خارج فصوله يستعينون بتلك المعرفة على قدر تلك الفصول ، ويستخرجون من احاديثهِ الشفاهية ما يؤيد اقواله الكتابية ويعزّزها. واني لشاكرة « للمقتطف » اقتراحهُ ، فهو الذي اوحى اليّ كتابة ما اراه الآن عليّ واجباً مقدساً

فلتحضر الروح العزيزة جلساتٍ اكون فيها وحدي

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

منفردة للبحث في آرائها واستخلاص درر معانيها. ولتقُد يدُها الروحيةُ القادرةُ يدي الجسدية الحائرة لأُثبت ما تريد إثباتهُ ولتنر حكمتها المكتسبةُ من ديار الخلود فكري الراغب في إدراك ما تعمّدَته من المقاصد والساعي في تحديد غاية قُصوى رمت اليها وهي ترى فيها كلّ الخيرِ لاصلاح الشؤون

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

(٢)

المرأة

إن في بعض الناس قوةً لا تكيّفها النعوت. ليست هي الذكاء وان كان الذكاء بدونها بلادة ولا الجمال وان عدم الجمالُ ميزةَ التأثيرِ بفقدانها. ولا هي توازن تراكيب الجسم وتناسب الاعضاء ونضارة الصحة وكلُّ هذه تافهة اذا حُرمتْ منها لأنها العنصر الخفيّ الحي الذي ينفعلْ بهِ الاقوام ويخضعون لسطوتهِ مريدين كانوا ام غير مريدين. لقد دُعي ذلك العنصر مغنطيسياً وكهرباء، وجاذبية، ولطفاً، وخفة دم، وخفة روح، و« نغاشة ». ولكنّ جميع هذه المعاني ليست الاّ اجزاءً منهُ وتشترك معها في تآليفهِ معانٍ أخرى شتى

انها لقوةٌ عجيبةٌ قد تحوّل ما هو في عرفِ البشرِ قباحة الى جمالٍ فتان: فهي بروقُ الذكاء المتألّقة في العيون وسيالُ اللطف المتدّفق في الابتسام وأغنيةُ الروح المتماوجةِ في نغمة الصوت. هي سحر الحركةِ وهي وسم الامتيازِ، وهي جلال الهيبة، وهي قداسةُ السكوت. هي المقياسُ السريّ الذي

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

يكيّف الاشارة ويوقع الخطى ، والشرارةُ التي تضرمُ نار الفكر ، والنورُ الذي يجعلُ كثافةَ المادة شفّافة . هي اليدُ العلوية التي اذا حلّتْ لسان المتكلم كان بليغاً، واذا اشارت الى الناظر بدت نظرتهُ عميقةً ، واذا قادت قلم الكاتب كانت كلماتهُ شائقةً فعّالةً يبقى صداها داوياً في اعماق النفوس

وكلٌّ من عرف باحثة البادية شخصياً اي معرفة الجسد او معنوياً اي معرفة القلم ، عَلمَ انها كانت حائزةً لهذه القوة التي حارت في تعريفها الاسماء . قد كان يكفي ان يعرفها المرء ليشعر بانجذابٍ اليها وليحبها . وقد كان يكفي ان يقرأ احدى مقالاتها ليرغب في مطالعة كل ما كتبت منفعلاً على رغم منهُ بالنَفَسِ الحارّ المالىء فصولها حتى لقد يتبيَّن توهُّج اللهيب المعنويّ بين سواد الحروف . عبثاً تبحث هنالك عن الكاتب الذي يعلو بكَ الى قمم الادراك والعرفان ويبتدعُ لك من روحهِ جناحين تطير بهما الى الآفاق البعيدة . ان مؤلّفة « النسائيات » قانعة بالغرفة التي تسكنها ، والحي الذي تسيرُ بين منازلهِ ، والبيئة التي هي جزءٌ منها . وحينما تعثر على ما لا يرضيها — وما اقلّ ما يرضيها ! — تضربُ بمؤلفات الباحثين

Google PRINCETON UNIVERSITY

وشروح العلماء عرض الحائط غير معتمدة الآ على ما تختبره بالمشاهدة. وسرعان ما تقابل بين ما تراهُ عند الغير وما يُشبهُ مما طرأ عليها او قد يكون مهدداً حياتها. هي عينٌ ترى ماهو كائنٌ فتذكرُ ما يجبُ ان يكون. على انّ هذه العين لا تنسى لحظةً انهاعينُ امرأة. فما تكادُ تلمحُ خيلَ اللوعة حتى يحترق القلبُ منها لهفاً وتذوب ذراتهُ وجماً. واذا طرقتْ موضوعاً تهتزُّ له طبيعتُها النسائية من اقصاها الى اقصاها سمعتَ منها هذه اللهجة الخلابة:

« انه لاسم فظيع (تعدد الزوجات او الضرائر) تكاد انامِلي تقف بالقلم عند كتابته. فهو عدو النساء الالد وشيطانهن الفرد. كم قد كسر قلباً وشوش لباً وهدم اسراً وجلب شراً. وكم من بريء ذهب ضحيته وسجين كان اصل بليته واخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا ففرقهم ايدي سبا واصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثار بني وائل وكانوا لولاه متفقين

« انه لاسم فظيع ممتلىء وحشية وانانية. كم احرج رجلاً وعلمه الكذب فافسد عليه خلقه وكم بذر مالاً كان يمده البعض رزقه وكم احفظ قلب والد على ولد وكم علم الوشاية والحسد. فاذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسةً تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها امثال لؤلؤ عروسك ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً. واخش الله في صغار يكون لبكائها علمتم الحزن فاستعاروا يواقيت عروسك اعيناً. انت تقرع سمعك الطبول والمزامير وهم لا يسمعون الا دق الحزن في طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين » (١)

قد ينظمُ الشاعرُ هذه الزفرات ابياتاً عامرةً وقد يطالعك

(١) النسائيات.

العالمُ الاجتماعيُّ على سلسلة عللهِ ومعلولاتهِ مثبتاً لك شرّ تعدّد الزوجات. ولكن قلما تجد في قصيدة ذاك وابحاث هذا تأثيراً يهزُّ نفسك كما تفعل هذه السطور القلائل. ليس ما قرأتَهُ هنا بمنحدرٍ من الفكر او بناتجٍ عن الملاحظة والتنقيب. بل هو اضطرابُ قلبٍ جالت فيهِ المرارةُ مكوّنةً انّاتٍ ما لبث القلم ان وقعهنَّ على وفق ضربات القلب الخافق. ان هذه الفقرة لا يكتبها الاّ قلمُ امرأة

* * *

نحن الذين اعتدنا ان نرى في والدتنا سيدة البيت الدائمة وربّة المنزل المطلقة لانستطيع ادراك ما هي عليهِ طائفةٌ كبيرة من اخواتنا من الشقاء تحت التهديد المتتابع بالطلاق. ولايمكننا تفهّم الانفعال الذليل المنحدر بهنّ الى مهبط الخوف والقلق واضعاً بين المرأة وبين تقديرها لكرامتها واعتبارها لنفسها هوة عميقة. وقد فطن أحد مُقرظي « النسائيات » الى عجز الامم غير الاسلامية عن ادراك ذلك فلام الباحثة لوماً لطيفاً اذ قال:

لقد صوّرت في ذلك الباب (باب الازدراء بالمرأة) المرأة في نظر الرجل اليوم على نحو ما كانت عليه في الجاهلية الاولى وهذا امر قلما طابق الواقع وهل

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

كان من حرج على السيدة او توسع المسألة بحثاً وان ترقب اليوم الذي تترجم فيه مقالاتها الى اللغات الاجنبية فتنشر احكامها على هده الامة في العالم الاوربي الذي يجهل معنى الغلو البديعي وانه من المحسنات في اللغةالعربية حيث يعتقد الاوربيون لا سيما نساؤهم اننا اليوم على ما كانت عليه جاهليتنا منذ اربعة عشر قرناً وناهيك مما يحدث هذا القول في العالم المتحضر من الآراء وما يجله علينا بعد ذلك من البلاء (٢)

غار خضرة المنتقد على سمعة قومه فاراد ان لا تقال الحقيقة كما هي حتى ولا في فم من لا يبغي الاّ الاصلاح .ولكن اذا تعمّد كتم ما هو جار وسدل الحجاب على شقاء فئة كبرى فلا يكفي تنبيه الباحثة الى ذلك بل عليه ان يكسر جميع الاقلام الشاكية وان يُسكت زفرات القلوب المكلومة . عليه ان يثلج دماء الشبيبة الطامعة في توطيد دعائم الاسرة وحفظ كرامة المرأة .عليه ان ينتزع الافئدة من الصدور لتكفّ عن الشعور بلوعة التقهقر العائلي . ثم ليكسر الاقلام ، وليمزق الطروس ، وليسلّ الالسنة ليجهل الغرب علّةً دامية في الشرق. أما باحثة البادية فلم تفكر قط في ذلك بل أثبتت الواقع بصراحة ناشدةً الاصلاح فقالت :

«اي ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها اشد من أن تخرج كلة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملتئمها واي امل لها في مستقبل مظلم لا تدري متى

(٢) انظر باب التقاريظ في آخر « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

ينهار بنيانه ؟ ان الدين لا يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا على غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وانما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما انّ منها النساء البائسات » (٣)

أين « الغلو البديعي » الذي يشكو منهُ هنا الاستاذ المنتقد ؟ أين « الغلو البديعي » في ما تقرّرهُ الباحثة من ازدراء الشرقيين، مسلمين كانوا ام مسيحيين، بالبنت في جميع ادوار حياتها وتفضيل الصبي عليها قبل ولادتهِ وبعدها ؟ وأين ذلك « الغلو » من مسألة الطلاق كما هو شائع الآن ؟

نعم ان سهولة الطلاق كادت تُلغى من الطبقة العليا ويندر وجودها بين من يغارون على سمتهم ويفهمون معنى احترام الاسرة من الطبقة الوسطى . ولكن هؤلاء هم الاقلية . والطلاق شائع عند الاكثرية شيوعاً كبيراً . وهاك ما كتبتهُ باحثة البادية بعد الاختبار الشخصي :

« وهذه البادية التي اقطن لا ابالغ ان قلت ان جميع نسائها جرّبن الضرائر . طالما سالت مرأة الحي هذا السؤال : « ترين هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك ؟ » فكان جواب كل من سألت سلباً . وسمعت عن اخريات انهن يفضلن ان يرين نعش ازواجهن محمولاً على الاعناق من ان يرينهم متزوجين باخريات . فيالله ! ألى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة » (٤)

ان هذا الموضوع يفتح باب الفصاحة عندها . واذا قالت

(٣و٤) النسائيات

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

حيناً بوجوب الطلاق فما ذلك الا ً لانها ترى فيهِ ما يخفف شقاء المرأة . قالت :

«والطلاق على مذهبي أسهل وقعاً وأخف المًا من الضر · فالاول شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد · فاذا كان الشقاء واقعاً على كل حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدة ترى بعينها ما يلهب قلبها ويدمي محجريها ؟ ألا ان حزينا حراً خير من حزين أسير ! وبعضهم يخادع المرأة الاولى بان يجعلها حاكمةً على البيت معها مفاتيح خزائنه · ولكن ماذا تفيد مفاتيح الخزائن والحكم على السمن والعسل وأين هذه من مفاتيح القلوب وحب الزوج ؟ (٥)

ألا يخيَّلُ اليك أن هذا الرجل الذي يدورُ على زوجاتهِ وفي يدهِ حزمةُ مفاتيح يفرّقها لهو من رجال القمر أوسكان المريخ ، أو على الاقل من أشباح الاقاصيص والاساطير ؟ ولـكن لا ! ان ذلك مع الاسف واقع على مقربة منا · ومن اخواتنا من هنّ ذكياتُ الفؤاد جميلاتُ الوجه والنفس لطيفاتُ الشعور شريفاتُ الميول ، وعليهنّ ان يحتملنهُ وان يصبرن على مضضهِ لانهُ امرٌ داخل في عادات قومهن !

انّ باحثة البادية لا ينضبُ ينبوعُ اجادتها في هذا الموضوع وما اكثر ما تصيبُ في نقدهِ مستخرجةً منهُ دروساً اخلاقية كقولها :

---

(٥) « النسائيات »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

« تعدد الزوجات مفسدة للرجل . مفسدة للمال . مفسدة للاخلاق . مفسدة للاولاد . مفسدة لقلوب النساء . والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الاهل والعشراء » (٦)

ثم تشرح كلاً من هذه شرحاً وافياً في مقال هو من اجل ما كتبت . بل هو في تقديري أتمّ فصولها وابدعها

* *

على أنَّ مطالبها لا تتوقفُ عند قلة الضرائر والتفرد في المنزل . بل هي تُنكر زواج هذا العصر القائم على الطمع وحب المال وتتطلَّعُ الى تلاءم الاذواق والتفاهم المعنوي . اقرأ هذا التهكم الممزوج بالغيظ :

« اذا اجتمعوا (المصريون) بسانحة افرنجية او امرأة غربية تلطفوا لها كثيراً ساعدوها في النزول من عربتها وأمسكوا لها حقيبتها ورفعوا الطرابيش (؟؟؟) اجلالاً لها في حين ان احدهم يستنكف الركوب مع امرأته في عربة واحدة . واذا سافرت أو انتقلت الى محلّ آخر تركها وتفسها كأنه لم يكن صاحب الافكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة . واذا ازدحمت الطرقات في موكب او مولد مثلاً رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنه زحام الحشر . فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا ؟ » (٧)

كتبت هذه السطور منذ سنوات عشر . واذا بقي هذا الوصف منطبقاً في يومنا على جمهور من الرجال فان هناك عدداً كبيراً من الطبقتين العليا والوسطى قد تغيَّرت منهم العادات

(٦و٧) « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

تحت تأثير المدنية ، وفعل السفر الى اوربا ومشهد الوحدة العائلية (ولو في الظاهر فقط) عند الغربيين . فصاروا يركبون مع زوجاتهم وبناتهم ويرافقونهن في السفر والنزهة . فكثيراً ما يُرى الآن الرجل المصري في مركبةٍ او سيارةٍ وبقربهِ زوجتهُ ونقابها الابيض الشفاف يضاعفُ جمالها الشرقي . ولا يندرُ ذلك على طريق الجيزة والاهرام وفي الجزيرة حيث يكثر الازدحام ايام الجمع والاحاد خصوصاً ، وفي الاعياد والمواسم الكبرى

ولئن حملت كاتبتنا على الرجل بلا مجاملة فهي لا توفّر المرأة ، على أنها تعطف عليها غالباً حتى في خطإِها وعثرتها . وتلومُ الرجل لانهُ القويّ ومنهُ تنتظر المساعدة والقدوة الحسنى . وبدلاً من ان يستبدّ بسطوتهِ فيصير سيداً رهيباً هي تريد ان يستسلم لعوامل الحنان فيصبح صديقاً مؤدباً . قالت

« في اعتقادي ان الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه وعلم ان امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند او على الاقل معاملة الوصي لليتيم لا معاملة السيد للعبد لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه ولاطاعته حبا به لا خوفاً منه . فبنات العصر الحالي حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة اكثر من امثالهن الغابرات . فاصبحن لا ترضيهن الكسوة والطعام فقط كاحدى خدم المنزل ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية اكثر من ذي قبل ويعلمن انه اذا لم يكن الحب اساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما » (٨)

(٨) « النسائيات »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الحمد لله : لقد آن لهنّ ان يفهمن ذلك ولو تجرّعْنَ في سبيلهِ من العلقم كؤوساً : أليس أفضل للمرء أن يسير نحو إدراك المعاني واستكناه الحياة ولو مخطئاً ضالاً من ان يظلّ مستكناً في ليل الذلّ، راضياً بقيوده ، قانعاً بجهلهِ وهو يحسبهُ عقلاً وطول اناة ؟ انما المرأة في موقف الاستعباد دون الجوامد حساً لان هذه تستعمل أقصى ما عندها من قابلية الحس ، أما المرأة فان لم تجاهد في تهذيب ما عندها من الملكات كانت قاتلةً قواها بيدها . والقوةُ التي تتبعثرُ مؤدّيةً الى الفوضى ان لم تعرف لنفسها قانوناً هي ذاتها اذا دُرّبت كانت عنصر الارتقاء الرفيع . ولئن عزّ السيرُ بانتظام بعد ليل العبودية الدامس لأن العين التي اعتادت الظلام يبهرها الضياء في بادىء الامر ، لكنها لا تلبثُ ان تألفهُ فتتمتع بهِ لاجةً فوضاها مصلحةً أحوالها . ليس هذا رأي الباحثة . وسننظر في ما تشير بهِ يوم ندرسها مُصلحةً . غير انها لا تنفكُّ عن العودة الى شعور المرأة ليعتدّ بهِ الرجلُ ويجعلهُ مقياساً لاعمالهِ واقوالهِ . فقد تختلف عندها ألفاظ الشكوى غير ان معنى الانين ثابت لا يتغير . كلُّ شيء في نظرها افضلُ من « ايلام نفس المرأة

وتنغيص حياتها . يا الله ! أليس لها من قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثورُ ؟ »

***

هي امرأة بكل معنى الكلمة . ومن دلائل ذلك انها تبدي يوماً خلاصة ما يجول في نفسها وتضطرب لهُ جوانحها ثم يشبُّ فكرها في يوم آخر فتثبت عكس ما جاءت بهِ قبلاً على خطٍّ مستقيم . فهل هي مناقضة ذاتها ؟ كلا ! بل هي مفصحةٌ عن نفس كثيرة النزعات جمة الميول كأنما هي جوهرة ذات سطوح شتى تلمع في كلّ منهنّ الوان جذَّابة واسعة فتّانة ، بينا عنصر الجوهرة يظلّ واحداً . رأيتَ انها كثيراً ما تستعطفُ الرجل بلهجةِ المتوسّل المتعمد تنبيه الاشفاق في نفسهِ . والآن اقرأْ واضحك :

« ولا يغيظني اكثر من ان يزعم الرجال انهم يشفقون علينا . اننا لسنا محلاً لاشفاقهم انما نحن اهل لاحترامهم . فليستبدلوا هذا بذاك . والاشفاق لا يتأتى الا من سليم لعليل او من جليل لحقير فأي الصنفين يعتبروننا ؟ تالله انا لنأنف ان نكون احد هذين »

بل قد يتأتّى الاشفاق من صديقٍ لصديق ومن محبٍّ لمحبوب ، وحذفُ الرحمة من القلب يعني حذف الودادِ معها في آنٍ واحدٍ . لأنّ الاشفاق من العناصر الجوهرية المؤلفة عاطفة

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

الحب . والقلب الذي لا يشعر مع من يحبُّ ولا يشفق عليهِ الاَّ قليلاً انما هو محبٌّ حباً ملؤهُ الجفاف والانانية والبرد الزئبقي

لماذا يشفقُ الرجل على المرأة ؟ لانها تقضي حياتها تائهة في لجج هوّةٍ لا يعرفُ هو منها الاّ الشاطىء ، وهي هوة العواطف . للرجل كبرياء الجولات الفكرية والاطماع المتزايدة والقوة البدنيـة . اما المرأة فمهما ارتقت وتناهت نشاطاً ورغبة في تسنّم ذرى الفكر ليست بقادرةٍ على ان تستخرج من نفسها آثار ذلك الارثِ الذي اودعتها اياهُ يد العصور . وهو قوة الشعور ، قوة الحب التي تخلقُ من الكائن الترابي العادي إلاهةً سامية جليلة

والمرأةُ القوية القادرة بارثها النسأي ضعيفةٌ جدّاً ازاء نفسها . وفي ذلك ما يستدعي الاشفاق والاجلال معاً .وليس الاشفاق بقاتل الاحترام وملاشيهِ ،بل قد يجتمعان متساندَين متعاضدين . فكم تشفق المرأة الضعيفةُ على الرجل القوي وكم تكون قوتهُ ذاتها موضوع عطفها . وذلك لا يقلّل من اعجابها بهِ بل كثيراً ما ينتبهُ حبها وينمو ساعة الشعور باحتياجهِ الى مساعدتها.فلماذا لا ينمو كذلك حبُّ الرجل تحت فعل الاشفاق ،

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وكم كان الاشفاق مقدّمة الحب، وهل في القلبِ المغلق في وجه الرحمة العذبة مكانٌ للحبّ الأكيد ؟

ولكن لا يجفلنّ القارىء لهذه الوثبة الكلامية من الباحثة : انهُ سيسمعها بعد حين عائدةً الى الابتهال

* * *

لن أُحاول وضع رسم معنويّ لها لأنّ كلّ رسم يظلّ واهي الخطوط ازاء الصورة التي جمعت فيها نفسها بيدها في السطور الآتية

« لماذا يامي تدعين عليّ بالعذاب المعنوي ؟ ألا انما العذاب البدني اخف منه وطأةً وأعنى اثراً . على اني جربت كليهما وذقت الامرين معاً . تقولين « لانه النار المقدسة » . نعم لقد اعطاني من القداسة مقداراً اكثر مما يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس . تقولين انه « النار التي تطهر » . حقيقةً . انه تلقى وجداني بالتطهير منذ ان كان لي وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لاقل شيء وهذا فيه من الضنى ما فيه . تقررين انه « النار التي تحيي » . نعم انه احيا روحي حتى احرقها لانه كان كمصباح سيال كهربائه شديد ولكن فتيلته لا تحتمل « هو النار التي تلين » . هذا ما ابديت ولكن ألا تعتقدين ان اللين يؤذي خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وانه لا يفل الحديد الا الحديد . انه ألانني حتى صيرني ماء وما اشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع انه اصل الحياة ! ! وختمت حسن تعليلك لعذابي بقولك انه « النار التي ترفع النفس على اجنحة اللهيب الى سماء المعاني السامية » . نعم انني الآن على اجنحة اللهيب ولكني لم اصل بعد الى السماء واذا وصلتها فلن يعود العالم يراني » (٩)

(٩) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

يومئذ حسبتُ هـذه الجملة الاخيرة زهرةً من زهرات البيان ولم اكن ادري انها نبوّة فما تلقّيتها الاّ اليوم بالتصديق فجاء تصديقي متأخراً : لقد وصلتْ الآن الى « السماء » فاذا وجدتْ هنـالك حيث احتجبت عن ابصار البشر متفرّغة لاستقبال وجه البقاء ؟ انها أردفت الفقرة السابقة بهذه الجملة:

« فهل يا ترى ستعجبني السماء ؟ اني اشك في ذلك »

اما انا فاعلم انها هي التي كانت ذات قابلية للتكيّف بقالب الاحوال المارّة لم تكن واضية عن « الارض » وسخطها على هذه الكرة هو الذي جعلها تشكُّ في هل « ستعجبها السماء » لقد كانت كجميع ذوي المزاج العصبي ، والعصبي الصفراوي المستسلمين للكآبة شديدة الشعور مع ميلٍ الى الحزن . وقد قوّى ذلك فيهـا تأثيرُ المطالعـة واعترفت بهِ حيث قالت : « اول ما حفظتُ من الشـعر المراثي واولها رثاء الاندلس . وكنتُ في حداثتي اقرأ كثيراً ديوان المتنبي واعجب بنفسهِ الكبيرة واظنهُ هو الذي عداني في ذلك وسمم آرائي . رحمهُ الله اني الذ كثيراً بهذه العدوى » (١٠)

(١٠) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وقد تكون مدينةً له كذلك ببعض الحكم المنشورة في
فصولها كهذه مثلاً : فالتجربة ارشدُ معلّم والليلُ والنهار
كفيلان بتأديبِ من لا مؤدّب له (١١)

* * *

من الأدوار الثلاثة المهمة التي تستغرقُ حياة المرأة اي
ادوار البنوّةِ والزوجيةِ والامومة كانت تحت تأثير الدور
الثاني يوم كتبت « النسائيات » لخروجها من دور البنوة
الصرف. ولما لم ترزق ولداً ينال نصيبهُ من عنايتها فقد ظلّ
اهتمامها محصوراً في موقف الزوجة ومركزها في العائلة والامة.
نعم انها بحثت في جميع ادوار المرأة المصرية من الطفولة الى
الشيخوخة ولكنها كانت بالزوجية اكثر اهتماماً منها باي دور
نسائي غيره . اما في احاديثها فكانت تكثرُ من ذكر أبيها
وقرينها مما يدلُّ على مقدار احترامها لهما وتعلقها بهما

زرتُها مرةً وسيدة انجليزية فوجدنا صالونها مملوءاً بالزائرات
المسلمات من والدات وفتيات ودارت بينهنّ مناقشة في ما
اذا وقع خلاف بين أب المرأة وزوجها فأيهما تتبع . فكثرت

(١١) « المصريات ومزية التوفير نشرت في الجريدة

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

الاقوال واحتدم الجدال الى ان قالت شابة عروس عام: «ماتت ابي منذ سنوات خمس فحزنتُ عليهِ حزناً شديداً وما زلتُ ابكيهِ الى يومي هذا . ولكن اذا مات زوجي اموت معهُ ولن اعيش بعدهُ لحظة لابكيهُ ».فاعترضت والدة هذه السيدة بلهجة جعلتني أظن ان بينها وبين صهرها سوء تفاهم في امرٍ من الامور، وانها تودّ استمالة ابنتها اليها.لكن باحثة البادية دخلت بينهما قائلةً بلهجة جمعت بين الجد والمزاح :« مكثتُ في دار ابي عشرين سنة ولما تمّ لي هذه المدة عند زوجي ... » فقاطعها هنا بعض الزائرات قائلات : « ما هذا ؛ أتجعلين طول الاقامة ميزاناً للحب ! »

قلتُ ان باحثة البادية امرأة بكل معنى الكلمة فهي لا تريد ان يعرف الجميع خفايا ضميرها ولا تريد ان تجرح زائراتها.وقد كان لديها مع قلمها (الذي كان صريرهُ يشبهُ احياناً وخز حربةٍ صغيرة غمست في مداد انما هو مزيج من مرارة ولهيب) سلاحٌ آخر نسائي محض،وهو الضحك ،وما يتقدمهُ من نظرات لطيفات المعاني وما ينتج عنهُ من ارضاء الجميع دون اغضاب أحد ، والتخلّص من المواقف الحرجة بمهارةٍ وبساطة

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

لو قالت « تتبع المرأة زوجها » لغضبت الأُمهات . ولو قالت« تتبع والدها » لسخط الاخريات.فلم تقل هذا ولا ذاك بل ضحكت في وسط الضوضاء والاحتجاج والاعتراض ضحكة فضية كرنين البلور على البلور ، أعقبتها بنكتةٍ صغيرة اقفلت باب الموضوع وارغمت جميع الحاضرات على الاشتراك في الضحك .وما كان اجمل ضحكة ثغرها يناشفتاها القرمزيتان تتلامسان بالفاظٍ مصرية التركيب واللهجةوالمعنى :

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

(٣)

المسلمة

لئن اجملتُ هنا ما فصّلتهُ في النبذة السابقة من حيثُ أَنَّ باحثة البـادية « امرأةٌ » في جميع ما كتبت فيحسنُ بي الآن المجاهرة بانها إزاءَ صفاتها الاخرى « مسلمةٌ » قبل كلّ شيءٍ . وايُّ مسلمةٍ هي : مسلمـةٌ شغوفٌ بدينها تغارُ عليهِ غيرةَ محبٍّ مدنفٍ يقدّس الاسم المحبوب ويرى في كلِّ حرفٍ من حروفهِ عالم بهاء وعظمـةٍ ومجدٍ لا يفنى . إنَّ إسلامها لظاهرٌ في كتاباتها ظهوراً جليّاً وأُقدّرُ أنها كانت معروفةً بالورع بين اخواتها المسلمات . وقد ذكرتْ ذلك الآنسة نبوية موسى — التي كانت رفيقتها في المدرسة — في خطبة بعثتْ بها الى لجنة التأبين وأُلقيت في الاحتفال المهيب الذي اقامهُ لها رجال مصر

هي مسلمةٌ إلى حدّ إدخالِ الدينِ في كلّ امرٍ من الامور سياسيّاً كان او اجتماعيّاً او اخلاقيّاً ، حتى مسائل الازياء

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

والزينة والاصطلاحات والاحاديث الثانوية . وممَّا قالتهُ في اسلوب المحادثة بين الزوجين

« هناك اخرى تقول لزوجها حضرتك وسماتك فما هذا التكلف البارد ؟ انا بتسميتنا فلاناً صاحب العزة وتلقيبنا احد الملوك بصاحب الجلالة لنكفر ونلحد . فما صاحب العزة وذو الجلالة الا الله الواحد القهار . ولو انصف كتابنا لحذفوا تلك الالفاظ الدالة على الشرك في كتاباتهم واقوالهم » (١)

اذا ما وقفت على بدعة مستحدثة ورأت امراً جديداً سارعت الى استجواب نفسها هل في ذلك ما يغاير الاوامر الدينية . واذا ساد نظام بين القوم واستحكمت روابطهُ بفعل المران والاستعمال والملاءمة لشروط الزمان والمكان دون ان يكون مقرراً في نصوص الشريعة السمحاء فهي لا تحفل بهِ كثيراً ، حتى اذا ما ارغمت على قبوله قبلت منهُ اقل مظاهره ابتعاداً عن الفكرة الدينية . ويا ويلها عادةً لا تروقُ لها : انها يثور ثائر غضبها وتتسلّح باسم الدين لمكافحتها ، ويا لحدّة سنان يراعها الذي يصبحُ في تلك الساعة حربةً وخازة ! قالت منتقدةً الذين يعلّمون بناتهم الرقص والتمثيل .

« لا اعلم عند الافرنجية عادة تساوي « الزار » الا مخاصرة الرجال في الرقص وما يتبع تلك العادة من التهتك والتصنع والميل عن جادة الصواب وما ينشأ عن اباحتها المطلقة بلا قيد ولا وازع من الضرر البليغ والاخلال بالشرف . وادهى من

(١) النسائيات

ذلك ان ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر فيزعمن انهن يجتنبن الرذائل بمحض ادارتهن وتربيتهن. ولكن هل اذا منعت الفضيلة امرأة عن اتيان ما لا يرضي فهل يصح ان تطبق هذه النظرية على كل امرأة ؟ ان النفس لامارة بالسوء ولقد تقدم على كثير من الموبقات لولا الضمير الحي وهو ثمرة الوازع الديني . أفلا يعقلون ؟ أرانا لا نتمسك شديداً بديننا الحنيف وهذا بدعة وعدوة اتتنا من الغرب. او كلما رأينا انساناً يفعل شيئاً حاكيناه وان كان في ذلك خسارة ديننا ودنيانا معاً ؟ »

« ان ذلك (اي الرقص) مناف للدين الاسلامي هادم للفضيلة مدخل لضار العادات بيننا فعلينا ان نحاربه ما استطعنا ونظهر احتقارنا لمن تفعله من المسلمات القليلات اللاتي اذا شجعناهن بسكوتنا لا ينبئن ان يعدين الغير منه » (٢)

لستُ ادري هل كثر العاملاتُ بهذا الرأي ؟ إني شهدتُ من الهوانم كثيرات ممن اتقنَّ خطوات « البوالكا » « والمازركا » « والڤالس » « والطانجو » يراقصن صاحباتهنَّ في اجتماعاتهنَّ اللطيفات . فايُّ مانع يمنعهنَّ ؟ واي « عار » على امرأة في مراقصة زوجها او اخيها في المجالس العائلية ، او مراقصة صديقاتها في اجتماعاتٍ نسائية ؟ انَّ فنَّ الرقص شرقياً كان ام غربياً ، رياضة مفيدة للصحة اذا استعمل باعتدال ، فضلاً عن انهُ يمرّن اعضاء الجسم فيكسبها ليناً ونشاطاً وخفةً ويحفظها من النشوفة والتصلُّب ، كما انهُ درس نافعٌ جدّاً لتحديد الحركة وتسهيل انسجامها ، وهو افضلُ مقياس لها .

(٢) النسائيات

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

ويجوزُ مثل هذا القول في التمثيل . اني عرفتُ سيداتٍ مثّلن في اجتماعات نسائية وسهراتٍ عائلية ، لم أَرهنّ رأي العين ولكن قلنا لي إنهنّ يفعلن . ومنهنّ واحدةٌ تعجب بالباحثة اعجاباً شديداً بل هي من اعزّ صديقاتها اللاتي يحببنها حباً جمّاً ، وقد اجتمعتُ بها للمرة الاولى في صالون باحثةِ البادية نفسها. زرتُ هذه السيدة منذ عامين او ثلاثة واخذنا نتحدّثُ عن بعض الروايات التمثيلية فذكرتْ رواية مثنيةً على حسن تأليفها وبراعة تنسيقها ، ثم قالت : لقد تقاسمنا ادوارها في الاسبوع الماضي ونحن منهمكات في هذه الايام بدرسها لاننا سنمثلها أنا وصديقاتي امام طائفة من معارفنا وزائراتنا » . كانت الباحثةُ في الفيوم يومئـذٍ الاّ انها كانت تراسلُ صديقتها هذه كلّ اسبوع تقريباً ، ولا ادري هلْ علمت بما كان يشغل صاحباتها مما انـكرتْ اتيانهُ بالحدّة التي تعلم

اما مسألة « الشرف » فيصعب حلها جداً لانهـا من الـكلمات التي يستعملها البشر غالباً في غير محلها ، ولها رنينٌ يقرعُ السمع كالأجراس ولـكنها في الحقيقـة أمرٌ نسبيٌّ — لجميع المعاني البشرية . الشرفُ في اعتقادي أسمى وانقى كثيراً

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

من ان يتلوّثَ بالغبار الذي تثيرهُ خطوات « الفالس » بل هو أرقّ لطفاً واصفى جوهراً من ان تدانيهُ يد الانسان . على اني أفهمُ ان الباحثة لم تقصد الرقص على الاطلاق لانها لم تذكر الرقص الشرقي ، بل هي عنت مراقصة الرجال للنساء على الطريقة الافرنجية

والآن أشعرُ بأني جالبة على نفسي حكماً شديداً من ابناء الطرز الحديث لما انا مجاهرةٌ بهِ . انهم ينحنون امام المرأة المحجوبة ولكنهم لن يكونوا لي من الراحمين . أنا فتاة سافرة تسري عليّ عادات مجتمع هو أقربُ الى « التفرنج » منهُ الى اي نزعة اخرى . وقد تعلمتُ الرقص واشتركتُ مع قومي في السهرات الراقصات ولم أرَ فيها شيئاً يصحُّ ان يسمى « اخلالاً بالشرف » ولكني ... ها قد وصلتُ الى الخطوة الرهيبة ... ولكني لا أريد للمرأة اختلاطاً كبيراً بالغرباء وأكاد اقول اني لا استحسن مراقصة الرجال للنساء

أما الآن وقد فهتُ بهذا الالحاد الاجتماعي الهائل فقد « نمّرني » اهلُ العصر وحشروني في فصيلة المتقهقرين والرجعيين . اللهمَّ لك الحمد والشكر على كل حال !

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

واذا نادتْ بالاصلاح العائليّ استشهدتْ بالله متهدّدةً الظالمين وقالت :

« الا فلينتبه الرجال وليتقوا الله في نسائهم وليعلموا ان التقوى مطلوبة في السر والعلن وان الله يرى » . « يا قوم تداركوا الامر . . . وسنوا سنة صالحة لابنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم آخرها الى يوم الدين ولله عاقبة الامور » (٣)

وقالت في اصلاح طريقة الزواج ووجوب اجتماع الخطيبين قبل عقد الخطبة استناداً الى ما كان يتمُّ وقوعهُ في الماضي :

« يرى اكثر عقلاء الامة ان لابد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج وهو رأي سديد لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يعملون غيره » . « مما يجعل مسألة الزواج عندنا (اي المسلمين) هينة لينة اباحة الدين الحنيف الطلاق وتعدد الزوجات . ولكن حاشا ان يكون قصد الشارع ما نراه الآن من الفوضى في أدق الروابط الاجتماعية ومن نقض عهود الاسر وقلب نظاماتها . فان الاديان لم تخلق لجلب البؤس وانما خلقت لاسعاد البشر » . « طريقة العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده في امور الخطبة والزواج طريقة شريفة معقولة اذ لم يكن الحجاب حينذاك كما هو الآن . واني اجاهر بان حجابنا مقلوب ونظام اجتماعنا فاسد اشد الفساد لا يصلح ولن يصلح ان تتبعه امة متمدنة » (٤)

واذا قرّرت بعض مساوىء الرجل واشارت بأمرٍ عمدت الى وصية الشارع العربيّ كقولها :

« اللهم ان رجلاً هذه أخلاقه مع زوجه وهذا مبلغ جشعه لحليق بان يفارق ولكن المداراة مما اوصى به النبي صلى الله عليه وسلم . فلتداره ما امكن فذلك خير لهما من الخلاف » (٥)

وقد قالت بتعليم المرأة أصول الدين مرة بعد مرة فصرَّحت

(٣و٤و٥) « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

بمطالبها في الخطبة الاولى التي ألقتها في نادي حزب الامة ثم جعلتها أساساً لاقتراحات قدّمتها الى المؤتمر الاسلامي المصري، وخلاصتها وجوب تعليم البنات « تعاليم القرآن والسنة الصحيحة» وان يباح للنساء الذهاب الى المسجد لسماع الوعظ والخطب والارشادات الدينية وحضور ما يقام من الصلوات والاحتفالات كنساء الاديان الاخرى من مسيحية ويهودية. وكان لهذه الاقتراحات صدى استحسان عند الجميع حتى عند ارقى المسلمين فكراً وأوفرهم علماً. فكتب الاستاذ لطفي السيد بك في مقدّمة « النسائيات » مستصوباً مؤيداً فقال : « ولو صحّ نظري لكانت قاعدةُ بحثها في تحرير المرأة قاعدة الاعتدال ورائدها في ذلك الشرع الاسلامي» . الى ان قال : « وقصارى القول ان باحثة البادية قد اجادت كل الاجادة في أن جعلت أساس بحثها تقرير المساواة لا على جهة الاطلاق بل في حدود الاعتدال والدين ».

ووردت الابيات التالية في ردّها على قصيدة شوقي بك المشهورة :

« أما السفور فحكمهُ في الشرع ليس بمعضلِ ،

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

ذهب الأئمة فيه بين محرّمٍ ومحللِ
ويجوز بالاجماع منهم عند قصد تأهلِ
ليس النقاب هو الحجاب فقصري او طولي
فاذا جهلت الفرق بينهما فدونك فاسألي
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولي
لا ابتغي غير الفضيلة للنساء فاجملي »

*
* *

وان لها في مدارس الراهبات رأياً صارماً جائراً .قالت:

« وهذه الفئة الجاهلة الدعية في العلم هي ولا شك فئة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الاهلية الاخرى . وحسبك وقوفاً على مبلغ هؤلاء ان تسألهن سؤالاً بسيطاً عن بعض ما يلقينه على مسامعك مثل الببغاء فلا يحرن جواباً . ثم ان احداهن لتسمعك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخذ نفسها من سرعة الالقاء واذا سألتها عن عمر بن الخطاب او صلاح الدين الايوبي او محمد الفاتح واضرابهم من حماة الاسلام قالت لك لا ادري » . « ومدارس البنات كلها في مصر خلا مدارس الحكومة الثلاث لا أثر فيها للنظام وليس فيها الا تظاهر بالعلم ورياء وهي في اعتقادي لا تصلح مطلقاً لتربية البنات المصريات . وبالجملة اقول ان احسن مدارس البنات في مصر هي مدارس الحكومة اخلاقاً وعلماً على انها لا تزال تقبل الاصلاح والرقي » (٦)

حسبنا شهادةً لمدارس الحكومة انها انجبت باحثة البادية ومن حذون حذوها . أما المدارس الاهلية التي قالت

---

(٦) « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

فيها الباحثة ما قالت فانا لا اعرفها الاّ بالاسم فلا يمكنني تولّي الدفاع عنها . ولكني اعرف بعض مدارس الراهبات حق المعرفة واني لاجاهر بان انتقاد الباحثة لا ينطبق عليها . وقد تكون الباحثة عثرت صدفةً على فتيات « تخرجن في مدارس الراهبات وهن لا يعرفن الاّ العزف على البيانو والرطانة ولسن من العلم والتهذيب في شيء ، وهن على جهلهن هذا شامخات بانفهن نحو السماء فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج في الشوارع وهنّ على العموم اكثر النساء اسرافًا وتبذيراً فضلاً عن البهرجة وقلة الحياء » ، وكنّ سبباً في تكوين حكمها هذا الشديد . ولكن اذ وُجد مثل هؤلاء بين خريجات مدارس الراهبات فلا تعدم اضرابهنّ المدارس الاخرى ، ويوجد مثلهنّ بين اللأتي لم يتخرجن الاّ في منازل آبائهن على يد أمهر الاساتذة وأفضل المؤدبين . كذلك انجبت مدارس الراهبات نساءً كنّ سعادة ذويهنّ ونور محيطهنّ كما انهُ قد يُرى من أفضل النساء في طائفة لم تتلقّن العلم الاّ من ذكائها الفطري ولم تتناول قواعد التهذيب الاّ من الوجدان السليم

Google PRINCETON UNIVERSITY

إنّ تأثير المدرسة وتأثير الوسط عظيمٌ جدًّا ولكنهُ ليس لهُ القدرة المطلقة ، والاهمية الكبرى انما هي في قابلية التلميذ واستعداده . لقد قال ارسطو مرة « ان عقل الطفل كالشمع اللّيّن يكيفهُ المعلم كيفما أراد » .فاقتبس هذه النظرية قوم من علماء الاخلاق وجعلوها أساساً لتعاليمهم لكن ما اكثر الذين قاموا يناقشونهم ويدحضون اقوالهم من المعارضين! ومن البديهي ان المدرسة لو كانت ذات فعل مطلق شاملٍ متماثلٍ لما رأينا الفروق الكبيرة بين طلبة المعهد الواحد والاختلاف الجوهري بين تلامذة الفرقة الواحدة المستقين العلم من استاذٍ واحد المنفعلين بتأثير مؤدب واحد. ترى لماذا لم تخرج لنا تلك المدرسة العزيزة وذلك القسم الدراسيّ المبارك الاّ « باحثة البادية » واحدة لا ثانية لها ؟

لستُ بمدافعةٍ عن مدارس الراهبات لمجرَّد الدفاع ولكني تربيتُ فيها سنوات أربع فاختبرتها بنفسي كما اني اختبرتها في غيري من بنات عمي وقريباتي ومعارفي اللاتي تهذّبن وتعلّمن فيها . لم أجد فيها العيوب المذكورة في « النسائيات » بل ما يناقضها على خطٍّ مستقيم منها الترفُّع الكثير عن الدنايا ،

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

والجري وراء مثلٍ أعلى قلما يتراءى في سبُل الحياةِ العادية ، ورفع النفس الى ما وراء المرئيّات ، والاكثار من الصلاةِ والتطرُّف في العبادة ممّا يؤهّل الفتاة لاعتناق الحياة الرهبانية فتظلُّ مدةً بعـد رجوعها الى البيت حائرةً في دوائر الهيئة الاجتماعية، غريبة بين هؤلاء البشر الذين يجهلونها ولا تفهمهم. وعلى رغم تلك العيوب ما زال الآباء يتهافتون على هذه المدارس، ورجال من افضل المصريين حصافةً واوسعهم علماً يأتمنونها على بناتهم واثقين بان نوع التربية الذي ينلنهُ بين تلك الجدران الصامتة لهو من خير الاساليب التهذيبية

أما النقص الشائن في اهمال تدريس التاريخ الاسلامي والتواريخ الشرقية الاخرى واتقان اللغة العربية فان اللوم فيهِ عائد على الاهل. اذ أي شيء يمنعهم عن تعليم ما يريدون لبناتهم بعد خروجهنَّ من المدرسة ؟ وذلك يسهل عليهنَّ يومئذ لانهنَّ يدرسن مختاراتٍ لا مرغمات فيجدن لذّةً تخلو منها اكثر الدروس المدرسية الجبرية ويقفن على كثير في وقتٍ قليل. ان الاجانب يهبطون ديارنا لترويج لغتهم ونشر علومهم وتاريخهم. وفي معرفتنا للغاتهم وآدابهم وتاريخهم وعلومهم سلاحٌ في يدنا

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

وقوةً نجاهد بها في ميدان المسابقة المفتوح لنا ولهم وهم فيهِ غالباً — غالباً فقط ؟ ! — فاَزون. وهل يكتفي المرءُ في هذا العصر بكونهِ حافظاً لتاريخ الشرق مستظهراً متون سيبويه وحواشي الصبان ان لم يكن لهُ المام بمعارف الغير مع اتقان لغةٍ اجنبية واحدة على الاقل؟ انَّ ناموس تنازع البقاء ليقضي علينا بذلك وان أحكامهُ لنافذةٌ سواءٌ شئنا ام لم نشأ · فان لم نسر بحكمةٍ مع النظام سرنا جهلاً ضدَّهُ. ومن ذا الذي يستطيع معاندة ما لا يعانَد ومغالبة ما لا يغالَب ؟ فان لم نجرِ مع دولاب الحياة انقلب علينا فكنا فريستهُ المنسحقة تحتهُ

لندرسنَّ علوم الاجانب من جهة ولندرسنَّ تواريخنا من جهة اخرى نكن جامعين بين المعرفتين أقوياء بالقوتين. ومن لم يكن مهتماً بشؤونهِ فكيف يتوقع من الغير باحوالهِ اهتماماً ؟

*
* *

سيرى فريق ان باحثة البادية كانت متعصبة. ذلك مما لا ريب فيهِ وكيف ينتظر أن تكون غير متعصبة ؟ أليست بشراً، أوليس التعصب من أشد العواطف ملاصقةً للنفس ؟

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

حدثوني عن تسامح من لم يكن متعصباً لأضحك قليلاً : مَن هذا الشخص ومن أي مُذنَّب مجهول في فيافي الفضاء قد هبط علينا ؟ العالم في مكتبه ، والمحسن في كرمه والشاعر في عزلته ، والفيلسوف في تأملاته كلٌّ من هؤلاء متعصب تعصباً يتفاقم شرهُ كلما كان خفيًّا تحت مظاهر الحلم والتساهل

واني لأرى استعمال المفرد في التعصّب سخيفاً بل هنالك تعصبات يجوز عليها جمع الجمع وجموع الجموع الى ما لانهاية لهُ. فالتعصب الجنسي والقومي والعلمي والفلسفي والادبي والاجتماعي والحزبي والفردي وتعصّبات اخرى لا أسماءَ لها تسير موكباً هائلاً سريًّا لا يبرزُ فيه الاّ التعصبُ الذي ننعتهُ بالدينيّ . قال قائلٌ ان التاريخ سلسلةُ حروب وان الشعب الذي لا حروب لهُ لا تاريخ لهُ ،ولو قلنا ان الحروب اجمالاً وتفصيلاً ليست الاّ حكاية تعصّب البشر لكنّا معبّرين عن الفكرة نفسها بكلماتٍ هنّ اقربُ الى معنى الصدق

كثيراً ما أُسائل نفسي ترى هل يهدأُ يوماً ثائرُ العواطف المتطرفة وتتوازنُ قوى الانصاف فيرتفعُ المرءُ بادراكه الى أُفقٍ يُشرفُ منهُ على جميع النزعات الانسانية ؟ تُرى هل يفطنُ

Google PRINCETON UNIVERSITY

البشرُ يوماً ان كلاً من الميول وكلاً من الاديان ينطبقُ دون غيره على مطالب فئةٍ واحتياجاتهم،فلا تطمئنُ منهم النفوس الاّ بالتمشي مع نصوصها؛لو شاء ربك لجعل الناس أُمةواحدة ، فتى يذكرون ؟ وما يسمونهُ عند الآخرين تعصباً يدعى عندهم غيرةً قومية ونخوةً وحميّة، فتى يذعنون ؟ ومتى يقولون مع الشاعر:

« هذي المذاهب كلها دين الهدى
كأشعة الشمس افترقن الى مدى
والملتقى في مصدر الانوار (٧)

كانت العاطفة الدينية مختلطةً عندها بالمعاني القومية والاجتماعية كما هي حالها عند اكثر البشر ، وان كانت عند المسلمين أوضح منها عند غيرهم . فاذا تكلّمت في اجتماعاتنا في مسائل إسلامية كنتُ ارى يدها تشير ببطءٍ وعظمة ورأسها يرتفع مفاخراً . فاذكر ازاء هاتين الحركتين كلمة الشاعر الاسباني القائل:« انما في عروق الشرق جميع الدماء ملوكية» (٨)

(٧و٨) من قصيدة لخليل مطران

(٨) "En las venas de Oriente
Todas las sangres son reales"
Villegas.

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

ويا طالما لمحتُ على تلك الجبهة السمراء الجميلة خيالات عزّ الاسلام تموج بين عقارب شعرها الاسود : فأحدّق اذ ذاك في شفتيها الصامتتين وأراهما تتكلمان بلا حراك ، وجمودُهما يُعبّر عن كلماتٍ حائراتٍ عليهما . وقد حسبتهنّ قول الشاعر :

« توزّع قلبي حبكم وهو غالبٌ
وحقدٌ على اعدائكم يتسعرُ
ولو كان لي بأس على قدر غيرتي
لكان لكم منهُ حصون وعسكرُ
أجودُ بروحي غير أن سبيلها
اليكم كما شاءَ الهوى متعذّرُ » (٩)

(٩) من قصيدة لاحمد الكاشف

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

(٤)

المصرية

المصريةُ من باحثة البادية مصريتان : مصريةٌ بظُرْفها ومصريةٌ بوطنيتها

مَن لا يعجب بالظُرف المصري الذي يبدو ادباً وحسن مجاملةٍ في المعاملات، ويتناقلهُ المتحادثون نكاتاً تمرُّ في الحديث فتجعلهُ ذا لذعةٍ لطيفة تشرحُ القلب وتبهج الخاطر؟ إن لكلٍّ من الشعوب صفةً كهذهِ التي يسميها الفرنساويون (esprit) والانجلو امريكيين (humour) وهو رسمُ جولةِ الفكر منهم مع ما تتضمنهُ من وخز «يفلفلُ» الاحاديث والمناقشات فيحميها من الملل الذي يتهددُ جميع العلائق البشرية إذا استمرَّت على وتيرةٍ واحدة

تتكوَّنُ الشخصيةُ الجاذبةُ من عنصرين اثنين : اولهما ثابتٌ لا يتغيَّر وهو الطبع، والآخر يُفرفر متنقلاً وهو الظرف. ولئن كانت قيمةُ المرء الاخلاقية وكرامتهُ وعظمتهُ في العنصر

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

الاول وهو القوة الاصلية الجاذبة ، فان الظُّرف (اذا كان طبيعياً لا تكلُّف فيهِ) ينقذُ الانتباه من تعب التوتُّر اذ يمزج الطبع الجـديّ العبوس بشيء خفيفٍ رشيقٍ وثّاب يرضي دائماً اذا كان خاضعاً للذوق السليم

وجميع الاقطار العربية تعترفُ للمصريين بالمقام الاول في عالم الظرف (كما في آفاق معنوية اخرى) ويساعدهم على التفرُّد بهِ لفظهم ولهجتهـم ونـكتهم اللاذعة . وقلَّ مَن من الاوربيين يفهمُ ذلك لأن فكرهم على توقُّدهِ وانتباههِ لا يستطيع الوصول الى الدقة الشرقية الخفيـة . أ يكفي التوقّد والانتباه لمن يطلب التفهّم ؟ أليس هناك صفة أُخرى تصيب جوهر المعاني والاغراض بوثبـةٍ واحدةٍ ، وهي البداهة التي كانت وستظل دائماً قوة النفس الشرقية ؟ وهذه الدقة المتوارية ازاء النظر الغريب أليست هي البادية في السلّم الموسيقي عوارض كثيرة التجزئة غريبة الاوضاع ؟ تلك العوارض اخذ بعضها نفرٌ من كبار الموسيقيين في الغرب ونظمها بيانافنياً جميلاً ، على ان الجمهور الاجنبي مازال يحسبها خطأً وخللاً موسيقياً في حالتها

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

الشرقية الصرفة . مع انها هي الجاعلة لموسيقانا سذاجتها وفعلها الاليم المستحبّ

للسان المصري سلطان يعنو لهُ الكلام،وللمصري سرعة خاطر مدهشة لا تكلّ ولا تنضب والفاظ كالسلسبيل حلاوة. ولكنّ هذه الميزة تظهر على أتم ما تكون في المصري الراقي الذي يرفعُ المعاني المتداولة الى اوج فكرهِ ثم يظهرها جديدة الانس والسلاسة تتبعثر فيها المُلح الحسناء ورؤوس حراب صغيرة تتهدّدُ بالوخز كثيراً ولا تفعل الاّ نادراً

* * *

كل ذلك في باحثة البادية محدّثةً وكاتبةً . خفـةُ الروح ترفرف على جميع سطورها . انها تستوقفك الوقت بعد الوقت بنكتة غير منتظرة وتهكُّم شائق يناسبُ الموضوع . كقولها في انتقاد الشراسة العابسة التي يستعملها بعض الشرقيين في منازلهم :

«زرت مرةً سيدةً ممن ابتلين بمثل هذا الزواج القاسي وكنا نتكلم واولادها الصغار يلعبون قريباً منا وبناتها الشابات يضحكن واذا بهن سكتن فجأةً وارتبكت أمهن وغارت اعينهن وعلاهن الاصفرار وقامت احداهن تهرول الى الصغار لتسكتهم والثانية تتسمع على السلم والاخرى ترى ما ذا يمكنها ترتيبه في حجرة والدها. تعجبت من هذه الحركة الفجائية وسألت عن الباعث لها فاخبرتني السيدة والحزن

باد عليها وتكاد لا تنطق الا همساً « ان البك ربما يكون قد حضر » . فقلت في نفسي اذا كان كل هـذا الاضطراب وفي حضوره شك فماذا يفعل هؤلاء النسوة اذا قيل لهن « انه قد والله حضر » ؟ (١)

ظرفها يبدو في الغالب تهكماً سليماً لا مرارة فيهِ ترطبهُ البسمةَ التي لا تبعدُ عنهُ كثيراً، ويعجبها ان تستعملهُ لايضاح أغلاط الرجل . ولو كنتُ رجلاً لجزلتُ لشراستي المزعومة وضاعفتها احياناً لتوحي الى الباحثة مثل هذه النكتة المليحة :

« فما أقـدر زوج الضرتين على التفنن ! ولو انصفوا لعينوا زوج كل اثنتين سياسياً او ناظراً للمستعمرات ! (ولكن الذي يؤسف له انا ليس لنا مستعمرات) (٢)

وهذه غيرها :

« يقول لنا الرجال ويجزمون انكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش . فليت شعري اي فرمان صدر بذلك من عند الله » . انهم لو انصفوا ولم يتحزبوا لما عيرونا باننا قليلات النبوغ وانه لم يسـمع بان احدانا غيرت قاعدة في الحساب والهندسة مثلاً . وليتفضل احدهم باخبارنا عما استنبطه من تلك القواعد .فنحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم اعمالهم ولكني لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كولومب لما تعذر عليّ انا ايضاً ان اكتشف اميركا » (٣)

ودونكَ هذا الوصف الحي في غاية الحياة لانهُ ينطبقُ على بعض مشاهدات واقعية . ولكنهُ يتناول المرأة هذه المرة :

« تسافر المرأة الافرنجية الآن او البدوية وحدها فتركب القطار او الجمل وسرعان ما تحمل متاعتها او تحضر من يحمله لها بلا ضوضاء . اما المصرية فلا تسافر الى محطة قريبة الا ومعها من الخدم والاقارب من تعطلت اعمالهم من اجلها ثم تجدها لا تكاد تحرك رجلاً لتنزل حتى يتحرك القطار واذا ساعدها الله (والاولياء !!)

(١ و٢ و٣) « النسائيات »

Digitized by Google

Original from PRINCETON UNIVERSITY

ونزلت فما اكثر ما تفقده ولا تجده . ضاعت حقيبة المصوغات وانكسرت القلة فبللت حبرتها واشتبك برقعها بمفتاح العربة فانقطع خيطه واذا لم يسرع حشمها في التقاط اطفالها فقد يقع احدهم تحت العجلات صريعاً » (٤)

صدقت الباحثة . ان طائفةً من النساء الشرقيات لم تتهذَّب منهنَّ الحركة فاذا مشين شعر الرائي بانهن منتبهات لحركاتهن مرتبكات فيها . وربما سرن على غير هدًى فيصطدمن بما حولهن من اثاث وجدران ويقلبن مرغمات ما على الطاولات من اناء ومزهرية وكتاب . قد يكون هذا راجعاً الى دور الانتقال الذي نحن فيهِ من القديم المنبوذ الى الجديد المحبوب ودور الانتقال يظلُّ دائماً أليف الحيرة والخبط والتردُّد الى ان يقوّمهُ المران وتألفهُ العادة . ولكنَّ من الشرقيات عموماً والمسلمات خصوصاً من هنَّ موزونات الحركة موزونات الكلمة يُعَدُّ ما يقضي معهنَّ من الاوقات لحظات انس وهناء

ينتشرُ ظُرف الباحثة غالباً في سطور كما رأينا في النبذ السابقة ويجتمع احياناً في كلمة واحدة او جملة مختصرة كقولها في نقد الحبرة المصرية :

« ان نصف ازارنا السفلي مربط (جونيله) لا يتفق مع كلة حجاب ولا مع معناها ولا مع الحكمة منه . اما نصفه العلوي فهو كالعمر كلما تقدم قصر . اما البرقع فاشف من قلب الطفل » (٥)

(٤ و٥) « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

كذلك تظلُّ يدها سائرة على هواها والنكتة جزءٌ من معانيها. وقد تدري بها فتضحك لها بعد رسمها على القرطاس، وقد لا تلتفت اليها مطلقاً. فتبقى في إعراضها والظرف يتسرَّب بين مقاطع الخطاب حتى يجيء الانفعال الشديد يهزُّها فتتطايرُ اذ ذاك من حول صحيفتها اسراب الملح والنكات والتهكم ويتفرَّغ اليراع لصبّ مقذوفات العاطفة المشتعلة والشعور المُعاني

* * *

اما المصريةُ الوطنيةُ فضمرةٌ دائماً وان لم ترفع القناع الاّ الوقت بعد الوقت. وربما تكلمت الوطنية احياناً باسم الاسلام وتارةً باسم الشرق بأسرهِ كقولها :

« اننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين في امور معاشنا ولباسنا وزي بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فاننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون اذ يفني الضعيف في القوي وانه لمن العار ان نهمل هذا الامر يجري بمجراه . فادعوا الكتاب والباحثين للتفكير فيه وفي ايجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث »

رأيٌ في منتهى العقل والاعتدال واخالهُ يتفقُ غرضاً مع الجمعية النسائية التي تألفت في هذه الايام لمقاومة تيار المدنية

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الاوربية في هذا القطر . انا الشرقية المحبة لكل ما هو شرقي اتمنى لكلٍّ من اقطارنا طابعاً شرقياً . لكن حسنٌ ان يبسط المرء مدى فكرهِ الى ما وراء حدود ما يتمنى لان جدران « التمني » ضيقة أحياناً . ثم اذا مال الانسانُ الى امر ووجد من نفسهِ دافعاً يحملهُ على طلب ذلك الامر بقوةٍ كان ملبياً نداءً سرياً منبثقاً من اعماق مزاجهِ . وكأنَّ خفايا المزاج تعلمُ ان في الامر المطلوب ما يكمّلُ منهُ قوى لم يبرز الاَّ بعضها او ان في ذلك الامر اقتداراً لتنبيه قوًى جديدة مجهولة . اذ ذاك ما تنفعُ الآراء وهل يستفيد المرء منها حقيقةً ولو تظاهر بالاصغاء والطاعة ؟ ان كان من قوّة الارادة بحيث يتيسر لهُ التملص من هذا الانجذاب فهل في ذلك خيرهُ أم كان خاسراً ظرفاً من الظروف النادرة التي تهيئها الحياة لتوسيع الممكنات وانماء الملكات ؟ تُرى هل فنيت قوةُ اليابان منذ احتضنت المدنية الاوربية واستخدمت مظاهرها ام تحسب اليابان من الرابحين ؟

أما ساعة تتكلم الباحثة بلسان المرأة فهي تحذفُ اسم

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

الشرق والاقطار الاسلامية ولا تهتم الاَّ بالمرأة المصرية دون غيرها كقولها :

« ان من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى انها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق . ففي عصر اسماعيل هجم علينا جيش من الشركسيات انهزمنا امامه وخرج ظافراً منا باحسن رجالنا فلم يكن شريف ولا نابه بمصر الا وأم ولده جارية شركسية من شراء اسماعيل . ثم ابتدأ رجالنا بعد ذلك الزمن يتزوجون بالاوربيات » . « اما وقد صار الآن بمصر من المتعلمات من يصلحن للزواج بابناء جلدتهن أفليس من العار ان تقدر على ان تجعل ابنك شريفاً من أم ذات حسب فتختار ان يكون ابن جارية شركسية او راقصة اوربية ؟ » . « ألا ربّ معترض يقول ان قد بطل الرق الآن وان من يصاهر الترك يصاهر اكفاء . هذا صحيح ولكن الام تغذي الطفل باميالها وطباعها كما تغذيه بلبنها فاذا ما حنت التركية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ متشبعاً باميالها يحب تركيا ويميل عن مصر وهو معدود من رجالها » . « وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطري للاتحاد هو على ما ارى ناشيء عن تشعب اجناس امهاتهم . فابن الفرنساوية يحب فرنسا وابن الزنجية يذكر خصب السودان وابن العربية يفتخر بمحتده وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده وهكذا اضعنا وطنيتنا المصرية عن طريق المصاهرة بالاجانب » « ثم اجدني محقة اذا قلت ان الدم يحن الى نوعه فاذا تكافأ الرجل والمرأة في العلم والتربية وكانا مصريين مثلاً فان الحب بينهما يكون اصدق وأمتن منه لو كان مختلفي الجنس » (١)

عندي اعتراضٌ صغير على كلمتي « أصدق وامتن » . ان للحب درجة واحدة من المتانة والصدق وتلك الدرجة كمية تدركها قلوبُ المخلصين قبل ان يفطنوا لها ، بل ان الاخلاص المجرّد من انتباه الشخص المخلص لوقوع اخلاصه كان دائماً من الصفات الودادية الاولية . ثم ان الحب هو العالم الانور

(١) « النسائيات »

Digitized by Google   Original from PRINCETON UNIVERSITY

والافق الاطهر الذي تتلاشى عنده كلُّ جنسيةٍ وكلُّ تحزبٍ، ولا يخطو بابهُ الاَّ المخلصون. كلاَّ لا يكون الحب « أصدق وأمتن » بين مصري ومصرية منهُ بين مصريٍّ وفرنساوية او انجليزي وزنجية، الاّ اذا ارادت باحثة البادية ان ابناء الوطن الواحد والطبقة الواحدة يكون لهم في الغالب اذواق متشابهة متقاربة فلا يولّد الاحتكاك فيما بينهم نفوراً. وهي نظريَّة أُصادق عليها نصف مصادقةٍ فقط لان اخوّة الجنسية والطبقة لا تعني اخوّة النزعات. كم من الناس رأَوا انفسهم منعكسين في مرآة نفوس الغرباء المختلفين عنهم جنسية وعقيدة واطماعاً ومصالح، فكانوا معهم متفاهمين متفقين لانهم وجدوا ان بينهم وبين هؤلاء الغرباء علاقات معنوية وقرابة روحية لم يربطهم مثلها بذويهم واقرب الناس اليهم: ذلك لان للنفوس والميول وطناً غير وطن الجسد. على ان هذا لا ينفي ان أبناء الوطن الواحد أقرب الى الاتفاق فيما بينهم ازاء المصلحة الوطنية

باحثة البادية تحب كل ما هو مصري. ما الطف هذه الكلمة في وصف اللون المصري:

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

« وما احلى السمرة الخاذبة لو فهمنا معناها . انها جيلة لانها جيلة ولانها مصرية ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى »(١)

وكم من رجل وامرأة في مصر يستحقان هذا التعنيف :

« انا في مصر ولكننا لا نعرفها.أرأيت اغرب من مبصر اعمى ؟ ان الاهرام على قيد فلتة العيار من القاهرة ولكن كثيرات منا لم يزرنها والآثار تخبرنا عنها السائحات الاجنبيات فنبدي جهلاً مزرياً ونعجب مما يقصصن علينا وتاريخنا مبعثر في الارض من قديم وحديث ولا من تلم به حياً من غير الكتب الجامدة الخالية من الزوح »(٢)

على ان وطنيتها أتم وضوحاً عندما تعالج الموضوع الذي يكثر عودها اليه وهو أن لا يأخذ أبناء هذا الوادي من مدنية الغرب الا ما لا بدّ من أخذه، على شرط ان يصطبغ بالصبغة المصرية ويتسم بالطابع الوطني ، كقولها :

فانصراف شباننا لتلقي العلوم الحديثة في اوربا يجب ان يكون لخير البلاد لا لشرها . فكما يتعلمون لنفع انفسهم يجب ان يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم ايضاً .فواجبهم الوطني يقضي عليهم بان يدخلوا كل ما يرونه صالحاً في بلادهم مع الاستغناء عن الاجنبي على قدر الامكان . فصانع الحرير الوطني اذا رأى معامل اوربا وسرعتها وجبان يشتري لبلاده الآلات اللازمة لسرعة انجاز العمل لا ان يدخل تلك الصناعة بعينها ويقضي على صناعته الجيلة فيكون قد اقتبس شكلاً وأبطل آخر فنحن اذا اتبعنا كل شيء قضينا على مدنيتنا . والامة التي لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة » .« اذا اردنا ان نكون امة بالمعنى الصحيح تحتم علينا ان لا نقتبس من المدنية الاوربية الا الضروري النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل . نقتبس منها اساليب التعليم والتربية وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة . وانما لا يجوز في عرف الشرف والاستقلال ان نندمج في الغرب فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة امام قوته المكتسحة الهائلة » (٣)

(١و٢و٣) النسائيات

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

ما أجمل هذه العبارات معنًى ومبنًى وما أوفاها حصافة وحكمة! انها لتستفزُّ الحمية وتدعو الى التصفيق وها أنا أُصفقُ لها بقلبي وراحتيَّ

***

ليس بين المعاني الاجتماعية ما هو ادعى الى التحمس والطرب من اسم الوطن لانَّ الوطن كل شيء. فهو الاهلُ والاحباب، والدموعُ والابتسامات، وهو القبور الغاليات ومهدُ الذراري المقبلات. هو مجموعُ الوراثات الاثرية والتاريخية والاخلاقية والعلمية والعملية كما أنهُ الفجر واجواق بدائعهِ الذهبية والغروب بسرادقهِ المهيب المنصوب فوق جيوش السحب المتامعة

هو العلَمُ الذي ترتعش لتلاعب النسيم باهدابهِ ذرّات القلوب

نحن الذين أحببنا من مصر جمالها الطبيعي وجلالها التاريخي وعظمتها الاثرية وعذوبة بنيها وبناتها، نحن الذين أحببنا من مصر كل شيءٍ نعلم ان مصر الحقيقة، مصر الصميمة، كانت تلك السائرة عالية الجبهة وراء أعلامها المنشورة. مصر

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

هي تلك الشبيبة الطامح الى الارتقاء وتلك الامة التي لها من فطنتها ما يذكرها ان طريق التقدم ليست التخريب والتشويش والتدمير بل الهدوء والعمل والتفكير. مصر هي المرأة المصرية التي أرتنا في هذه الايام ان فيها ما كنا نتمناه لها وهو ينتظرُ أن تنبههُ يد الاحوال ليبدو مسطوراً. ما كان ألطف البسمات النسائية أيام المظاهرات وراء النقاب الابيض. وما كان أبهج الاعلام المصرية المثلثة الاهلة الموحدة الصليب تلوّحها الايدي النحيفة: وما أحبَّ الاصوات الشجية الخافتة تنشد أناشيد العزّ وتهتف هتاف الحماسة!

لترقد الباحثة بأمان وسلام ان لاخواتها أهلية وطنية كأهليتها. أحيّي هنا ما كان عندها من مصرية صادقة وأحيّي بعدها كل امرأة مصرية، ولا أخشى ختم هذا الفصل بهتاف واحد: لتحيي مصر!

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

(٥)

الـكاتبة

« اما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الـكتابة فحسبي ان اقرر من غير محاباة انها اكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر . بل هي تعطينا في كتاباتها صورة الـكاتبات الغربيات اللاتي تفوقن على كثير من الـكتاب »

احمد لطفي السيد بك (١)

« اني رأيت في كتابة هذه السيدة حدة في بعض الموضوعات وكأنها معذورة في حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها فكتبت فيه وهي ممتلئة حنقاً »

الشيخ عبد الـكريم سلمان (٢)

« انها اعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم في ميداني الـكتابة والخطابة » احمد زكي باشا (٣)

« لله درك ان نثرت ودر حفني (٤) ان نثر »

حافظ ابراهيم بك (٥)

وما حاجتي الى الكلام عنها كاتبة ؟ اننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الـكتابية مكتفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية، لأثبتنا على الورق ما قد سبق

---

(١) في مقدمة « النسائيات »

(٢) و (٣) انظر باب التقاريظ في النسائيات

(٤) كان المرحوم حفني بك حاضراً في احتفال التأبين الذي أقيم لـكريمته وذلك قبل وفاته بأسابيع قليلة

(٥) من مرثاة شعرية القاها حافظ بك في حفلة التأبين

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

وقرَّرهُ حكمُنا الصامت.وهو انها كاتبة كبيرة. يطلقُ الناس عادةً اسم«الكاتب الكبير» على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون . انَّ من حملة الاقلام من لهُ مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير ، لانه ليس كاتباً على الاطلاق. انهُ ينقصهُ ما يسميه الافرنج« قماش الكاتب » أي السر الذي يقود الفكر الى اختيار الالفاظ الصائبة ، ويعلم اليد صياغة الجملة الملائمة ، وينقصه خصوصاً ذلك اللهيب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام

ما هي الكلمة ؟

الكلمة التي تعين الحركة والاشارة والصوت واللون والانفعال ، الكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها ، ماهي وما هو سر انتخابها ؟ الا بجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة الا بالكلام، فما هي تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاه وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائي ، والليل وعمقه وكواكبه ، والنفس وعجائب خفاياها ؟ كيف تنبض في الالفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة الشعور

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

وهيجان الغضب ، وأنين الشكوى ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتز الالفاظ تارة كالاوتار وتولول طوراً كامواج البحر العجاج ، وتهمس حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطلق من سحيق الذراري ومبهم الآمال القصوى ؟

قال فكتور هوغو أن الكلمة كائن حي (٦) وقد تكون خالقاً ساعة تجعل المخيلة ترى ما لا يرى . وتنظم القرطاس أفقاً مفعما بالكائنات الجميلة ، وتصبح سحراً يصيّر الغائب حاضراً والعدم وجوداً

ان للافصاح عن الفكر أساليب جمة ولكن لا يصلح للكاتب الواحد الا اسلوب واحد ، وهو الذي يتفق مع ذاتيته. كلنا عالم ذلك . وكلنا باحث عن الطريقة التي . . . فأجارك الله . يا أيها الباحث ، من الطريقة التي . . . انك لتهوي قبل الوصول اليها في دركات التصنع والتكلف والتعمل ، وتتيه في فيافي الخلو والتقعر والجفاف . واذا حاولت النهوض من الدركات او العودة من الفيافي تعثرت قدماك وقلمك بذيول

(٦) "Car le mot, qu'on le sache, est un être vivant"
Victor Hugo (les Contemplations).

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

الزوائد والحواشي الجاهزة بين المتداولات كالحلوى على اطباق حلوانى العيد . أو داهمك مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئك الشقي بأنهُ حُكم عليهِ بسفّ التبن لجريمة مجهولة منهُ ومن البشر أجمعين

ان افلاطون الذي اشتهر ببلاغتهِ اشتهارهُ بفلسفتهِ ظلَّ ينسخُ كتابهُ « الجمهورية » الى عمر الثمانين ليزيدهُ تحسيناً واصلاحاً . ذلك لان الكتابة التي يراها الكثيرون مسألةً هينة أكثر الفنون دقةً وعسراً . ولا اظن اكتشاف القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الاسلوب (هذا القطب الآخر) على الكاتب الذي عندهُ شيءٌ يقولهُ لانَّ نفسهُ تفيض به وتحثّهُ على اعلانه . كلمات النفس حركاتٌ خفيفةٌ لطيفة ، فكيف يتيسّر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبعُ اداة القلم خطوات النفس الوثّابة الكثيرة الاهواء في تموّجها وتخنّيها المباغت من الفرح الى الحزن ومن التحنان المذيب الى النقمة البركانية ؟ انَّ ذلك لسر تملَّص من القواعد والنصوص وترفّع عن ان تلقيهُ الضمائرُ الى الالسنة . وهو كل مقدرةِ الكاتب أو كل ضعفهِ

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

كذلك فيه الحكمُ بالاعدام أو بالخلود . وهناك معيار للوقوف على مقدرة الـكاتب ومعرفةِ النقطـة المتغلبة لديه ودرجة ادراكه للسر المـكنون ، وهو المقابلة بين ما كتبهُ هو وما كتبهُ آخرون في الموضوع نفسه

***

لنُخضعنَّ بعض صفحات الباحثـة بل جميـع فصول «النسائيات» لهذا الحـكم نجد اللغة في يدها آلةً دقيقةً ماهرةً في تدوين ماتريد . ولا أعرفُ من هو أقدرُ منهـا على وضع الـكلمةِ في مكانها بحيث أنك لو تعمّدتَ حذف لفظةٍ من جملة كنت باتراً مجموع المعنى . هي تخبرك عن أحقر الاشياء برشاقةٍ وبلاغةٍ لانهـا مصرية كلَّ المصرية أي ان الرشاقة والبلاغة طبيعيتان فيهـا سبق وجودُهما عنـدها قلمَ الـكاتب . وقد وَضَعتْ « للـكاتب » وصفاً وما كانت واصفةً الاَّ نفسها في هذه الفذلكة التي هي من ادلّ ما كتبتْ على جمال اسلوبها :

« اللسان والقلم رسولا القلب الى الناس او هما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حواليها من الصفات . وان شئت فقل هما سلك كهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم . تنقل عنه رسالة اخلاقه حرفاً حرفاً بلا زيادة ولا نقصان . والفضائل والرذائل كامنة في الاشخاص لا يوري زنادها الا الاقوال والافعال . فالمتكلم والـكاتب تظهر اخلاقهما جليا فيما يقولانه او يخطانه

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

وان حاولا اخفاءها لان الطبع غالب والتطبع سهل بال قليل الستر ان واري شيئاً تظهر منه اشياء . والفكرة وان جانبتها لا تزال تحوم حواليك وترفرف الى ان تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب » (٧)

« الفكرة التي تحوم وترفرف » لا تجد عند الباحثة « مقراً تستقر فيهِ من الجولان والاضطراب » الا البيئة التي جعلتها موضوع اهتمامها . واذا خرجت من هذه بالفكر حيناً جاء ذلك للمعارضة وتقويةِ الحجة ووجوبِ قياس القريبِ على البعيد كتمثيلها الطبيعة هذا التمثيل المترسّل :

« فالسماء معقودة على الافق في مصر وهي كذلك معقودة على الافق في اليابان وفي جرينلاند . لم يضع الله لها عمد المرمر في ايطاليا ولا قوائم العاج في السودان ولم يقرّها على حوائط البلور في النمسا . تنيرها الشمس نهاراً (الا في القطبين) والقمر ليلاً وقد نثرت فيها النجوم نثراً الا قليلها فهو مظلوم . ولم يشأ الله وهو قادر ان يجمعها كلها في شكل عقود وتيجان وأن يرسمها دوائر مثلثات مرصوصة رص البلاط الملوّن وهي مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر . والارض بسيطة ايضاً لا تحوّل لنظامها . فالصخر يفتته توالي الريح والمطر فيصير رملاً . والرمل تسفيه الريح ويعجنه المطر فيكون صخراً . والبذر ينبت اذا لقي رياً وارضاً صالحة . وما أبسط سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح ويثقل عليها ثمرها فيتدلى او يسقط الى الارض » (٨)

وما الذي تظنهُ موجباً لهذه السطور المنمّقة بقلمٍ قديرٍ كما أنها تنمُّ عن نفس منبسطة الارجاء توزّع فيها حبٌّ الطبيعة وتفهُّم الجمال ؟ أتحسبهُ مشهد شروق اوغروب او وقفةً على

(٧و٨) « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

جبل شاهق ، او جوبةً بين ضلوع الوادي المخطّطة بالمياه المتعامّات ؛ انها استهلّت النبذة السابقة بهذا المطلع : « بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلّف لايتفق مع مايريده الله لهما من سكون الواحد الى صاحبهِ و يشذّ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة ارسالاً من غير تعقيدولا ابهام . فالسماء معقودة على الافق في مصر الخ »

اذاً ارادت انتقاد الكلفة بين الزوجين المصريين ليس غير : وان ذلك ليذهلني قليلاً . لان الفكر الذي يبقى ضيق الحدود ماظلّ مستقرّاً على الجزئيات ينفتحُ منهُ الجناح بانطلاقهِ الى الكليات . فيستنسر محلقاً في آفاق بعيدة ، ويتّسع منهُ الكيان ممتداً في تمدّد الكون الذي هو جزء منهُ . وحينما يصل الى هذا المقام من النشوة المعنوية ينحسر لثام الظرفية عن صغائر الحياة ويتموجُ الجزء الحقير غارقا في الكل العظيم فيبدو للمفكر بوجهٍ آخر ومعنى جديد عميق . ولكن باحثة البادية بعد هذه الطيرة الفكرية تهبطُ الى ضرب مثلٍ عن احد ملوك الصين لتثبت قبح التكلّف وحلاوة البساطة، ولتنتقد المرأة التي

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

وان حاولا اخفاءها لان الطبع غالب والتطبع سمل بل قليل الستر ان وارى شيئاً تظهر منه اشياء . والفكرة وان جانبتها لا تزال تحوم حواليك وترفرف الى ان تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب » (٧)

« الفكرة التي تحوم وترفرف » لا تجد عند الباحثة « مقراً تستقر فيهِ من الجولان والاضطراب » الاَّ البيئة التي جعلتها موضوع اهتمامها . واذا خرجت من هذه بالفكر حيناً جاءَ ذلك للمعارضة وتقويةِ الحجة ووجوبِ قياس القريبِ على البعيد كتمثيلها الطبيعة هذا التمثيل المترسل :

« فالسماء معقودة على الافق في مصر وهي كذلك معقودة على الافق في اليابان وفي جرينلاند . لم يضع الله لها عمد المرمر في ايطاليا ولا قوائم العاج في السودان ولم يقرّها على حوائط البلور في النمسا . تنيرها الشمس نهاراً (الا في القطبين) والقمر ليلاً وقد نثرت فيها النجوم نثراً الاّ قليلها فهو مظلوم . ولم يشأ الله وهو قادر ان يجعلها كلها في شكل عقود وتيجان وأن يرسمها دوائر مثلثات مرصوصة رص البلاط الملوّن وهي مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر . والارض بسيطة ايضاً لا تحوّل لنظامها . فالصخر يفتته توالي الريح والمطر فيصير رملاً . والرمل تسفيه الريح ويعجنه المطر فيكون صخراً . والبذر ينبت اذا لقي رياً وارضاً صالحة . وما أبسط سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح ويثقل عليها ثمرها فيتدلى او يسقط الى الارض » (٨)

وما الذي تظنهُ موجباً لهذه السطور المنمّقة بقلمٍ قدير كما أنها تنمُّ عن نفس منبسطة الارجاء توزّع فيها حبُّ الطبيعة وتفهم الجمال ؟ أتحسبهُ مشهد شروق اوغروب او وقفةً على

(٧و٨) « النسائيات »

Digitized by Google · Original from PRINCETON UNIVERSITY

جبل شاهق ، او جوبةً بين ضلوع الوادي المخطَّطة بالمياه المتعامات ؟ انها استهلّت النبذة السابقة بهذا المطلع : « بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلّف لايتفق مع مايريدهُ الله لهما من سكون الواحد الى صاحبهِ ويشذُّ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة ارسالاً من غير تعقيدولا ابهام . فالسماء معقودة على الافق في مصر الخ »

اذاً ارادت انتقاد الكلفة بين الزوجين المصريين ليس غير : وان ذلك ليذهلني قليلاً . لان الفكر الذي يبقى ضيق الحدود ماظلّ مستقراً على الجزئيات ينفتح منهُ الجناح بانطلاقهِ الى الـكليات . فيستنسر محلقاً في آفاق بعيدة ، ويتّسع منهُ الـكيان ممتداً في تمدّد الكون الذي هو جزءٌ منهُ . وحينما يصل الى هذا المقام من النشوة المعنوية يحسر لثام الظرفية عن صغائر الحياةويتموجُ الجزء الحقير غارقا في الـكل العظيم فيبدو للمفكر بوجهٍ آخر ومعنى جديد عميق . ولـكن باحثة البادية بعد هذه الطيرة الفـكرية تهبطُ الى ضرب مثل عن احد ملوك الصين لتثبت قبح التكلُّف وحلاوة البساطة، ولتنتقد المرأة التي

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

تقول لزوجها « ياسيدي » او « يابك » فيناديهـا هو بقوله « يا هانم » !

ترى ألم تكتب النبذة الأولى في يوم ثم عادت فألحقت بها ما يليها في يوم آخر؟

*
* *

انها كجميع النفوس التي اثقل فكرَها ما خلا منهُ فكر الآخرين فكانت بذلك منفرزة عن محيطها — تتجنَّب جابة الجمهور ما استطاعت وتستهويها العزلة حيث يختمر الفكر وتنضج ثمار التأمل . تحبُّ عيشة القرى والخلاء بقدر ما تنفر من المدن ميادين الكذب والمشاجرة والضوضاء . وقد أبدت ميلها هذا في الفقرة الآتية الحسنة :

« قل ما انق الهواء واعذب الماء واصفى السماء في القرى وما اكدب الحياة واقرب الوفاة في المدن . القرى جميلة لانها على الفطرة . اما المدن فلا تمدم اثراً للتكاف والرياء . اين دوي الكهرباء من خرير الماء والدخان المتعاقد فوق المداخن من جوّ لا ترى فيه الا تحليق الصقور والا رؤوس النخل الباسقات ؟ ؟ واين وحل الشوارع وعثيرها من ارض كسيت ببساط النبات ؟؟ واين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى ازهار الحقول ؟ ؟ بل ما اوصل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد الا اللانهاية في الفضاء ؟ » (٩)

---

(٩) « النسائيات »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

« اللانهاية في الفضاء » : في المدن مجد النشاط وجلال العمران ولكنّ عين المفكّر في حاجة الى تسريح النظر في المدى الواسع كأنها هي تبحث في ابعادهِ المتراميات عن حلّ ما غمض عليها من مشاكل الحياة ، أو كأن القلب الحزين يستخرج من عصير الالوان الجوية بلسماً ان لم يكن شافياً لسآمته ففيه ما يجلب التلطيف والتسكين

سمعتُ مرةً فتاةً تقول : « ومَن ليس جميلاً من هنا (مشيرة الى العينين) ؟ وقد كانت مُصيبة • ان من جميع اعضاء الجسم وتقاطيع الوجهِ ليس اكثر من العينين شفوفاً عما يألفهُ الذهن من الخواطر وما يتصق بالنفس من الرغبات. العين مرآة السريرة تطلُّ منها جميع الخيالات والاشواق فاذا عرفت عين امرىء عرفت ماهو اجمالا وبعض ما طوي عليهِ . ولئن كان بعض العيون جميلا دائماً فانَ جميع العيون جميلةٌ في اوقات معينة ، والمعنى النفسيّ الاقوى تغلُّباً على الملكات ينيل العينين تعبيرهما المقيم

لم يكن في عيني باحثة البادية ما يدل على انهما اعتادتا النظر الى داخل الوجدان حيث ، وراءَ الجراح والدماء والآمال

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

المهشّمة ، يلمع بصيص النور الذي لا يخبو وهو السعادة الحقيقية الوحيدة ، لانهُ من الروح ، وللروح ، وفي مأمن من كل شاردةٍ وعادية . ان الباحثة لم تكن على شيءٍ من الروحانية ، وكانت تقدّر الظواهر وتتكئ عليها في اشياء كثيرة ، حتى في تدينها . وعلى رغم ذلك فان ادراك « اللانهاية في الفضاء » كان يتألّق أحياناً في عينيها الباسمتين الكئيبتين ، في تينك العينين القاتمتين لوناً ومعنًى : لان الاحتياج العنيف المندمج في مطاوي النفس البشرية ، ذاك الاحتياج الدائم الى قوت اثيري ، ليس ليقوم مقامهُ ما تقدّمهُ الارض من غذاءٍ وعزاء . واكثر الذين لا تسمح لهم شواغلهم بالشعور بذلك الاحتياج يطلقون عليهِ اسم « الخيال » وهو في الواقع خيالٌ بالنسبة اليهم . ولكنهُ بالنسبة الى الآخرين حقيقة ثمينة قد ائتُمن عليها اصفى جواهر الانسان

*
* *

كلنا معجبٌ بفصاحة القرآن ونعزو اليهِ فصاحة العربية عند المسلمين ، واستقامة لفظهم وجمال منطوقهم ، وفخامة اسلوبهم الكتابي ، لانهم يستظهرون آيهُ صغاراً ويستشهدون

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

بها كباراً . الاّ ان فصاحة الكتاب الحكيم وجماله قد عوّدا القوم الكسل الفكريّ . فصاروا اذا ما ارادوا الافصاح عن رأي أو نظرةٍ اهملوا إجهاد القوى المولّدة مطمئنين الى ضرب آية قرآنية — أو حكمة شعرية — مثلاً ، تاركين قرائحهم في حالة الجمود مستكنات ، وعليها خيوط العنكبوت تخيم آمنات .

بيد ان هذا الانتقاد الذي يصح على الاكثرية لا ينطبق على اقلية لبيبة ان هي استعملت الآية القرآنية عند الحاجة فإن لها اسلوبها الخاص . وقد تنسج عبارتها على وزن عبارة القرآن بنزعة فطرية ، واضعة الفاظهُ لمعنى شخصي وبشكل جديد يسترقُ السمع ويستأسرُ المخيلة قبل ان يبلغ افق الادراك . وعند الباحثة مثل ذلك احياناً ، كهذه الجمل ذات التفصيل القرآني والموسيقى القرآنية :

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الامة وتربية ابنائها على حبّ الاستقلال والدستور ؟ اما والله لو أرانا رجالنا عناية واحتراماً لكنا لهم كما يحبون . فما نحن الا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون . فاذا أرادوا من اصلاحنا فليصلحوا من انفسهم والا فلينظروا ماذا هم فاعلون » (١٠) .

أظنني قلتُ قبل اليوم انّ أحداجزاء شخصيتها لا ينفصلُ

(١٠) النسائيات

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

عن الاجزاء الاخرى ولا تعمل احدى قواها الاّ بمعاونة جميع القوى . لذلك ترى المصرية ممتزجةً دائماً بالكاتبة ، وتتكلم الناقدةُ والمصلحةَ بلسان المسلمة والمصرية ، كأنما هي لا تستطيع تجريد نفسها من نفسها . وترتسم المرأة في كل كلمة تخطّها الكاتبة . وما هي الاّ امرأة في البدء ، وامرأة بالتالي ، وامرأة دائماً . فاذا ذكرتْ إحدى مزايا النساء ترنّح القلمُ ثملاً بين أناملها وهو يقول :

« البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة ومعوان على قضاء الاشغال يصل نورها الى قلب صاحبها فيفعمه غبطة . وكذلك (اني احذف بسرور هذه الكذلك الزائدة هنا) يلقي شعاعه الكهربائي على من حوله فتنتعش به ارواحهم . وهي جميلة في الكهل كما تجمل في الطفل الا انها ابهى وأشد تأثيراً في المرأة تلك التي تسيطر على القلوب ولا تدري (١١)

. . . أو تدري . وهذا لا يقلّل من جمال البشاشة

ولو جاز لي تحديد هذا الاسلوب الكتابي لقلت ان لهُ من المزاج العصبي الصفراوي الحرارة التي تكون حيناً حدّةً وحيناً نعومة ، ومن الاسلام التنميق والبلاغة ، وهو بالجملة مصري أسمر « نغش » جذاب

***

ولا يسوغ لي أن أختم هذا الفصل دون التنويه بأمر آخر

(١١) النسائيات

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

اشتهرت بهِ دون غيرها بين المسلمات ، وهو الخطابة . ولـكن كيف اتكلم عن أمرٍ أجهله وكيف أحكم على خطيبٍ لم اكن يوماً بين المستمعين اليهِ ؟ غاية ما أعلم انها كانت جامعةً لصفات لا بد من توفرها لكل مقدم على ارتقاء المنابر : أولها وأهمها السمبائيا Sympathy وخفة الروح ، ثم عذوبة الصوت المنطلق من الصدر ، لانَّ كل صوتٍ ينحدر من الرأس الى الانف يكون ذا نغمةٍ شائكة مزعجة فيفقدُ قوة التأثير . وان لم يكن الخطيب مؤثراً فلماذا يتكلم ؟ ثم وضوح اللفظ وبلاغة النطق ، واخيراً الشجاعة الادبية اللازمة لابداء الرأي بكرامة وسذاجة

كثير من مقالاتها مكتوب بكيفية خطابية وهي كيفية فعالة . غير انها في خطبها تتبع خطة المحدث البسيط لانَّ خطبها لم تكن في الواقع الاَّ محاضرات ، وهذه تشغل الدرجة الواقعة بين الحديث المألوف والخطابة الصرفة . وقد تركت بعض المنظومات لانها كانت تحبُّ الكلام الموزون ، وكل ما نثرتْ موزونٌ منسّق . ولا أعرفُ في كلّ ما كتبت نبذة أبدع من هذه التي تبدو فيها مقدرة مزدوجة كتابية وخطابية

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

يختلطُ بها شيءٌ من الشجن الشعري وكآبة المرأة الغزيرة العواطف الدامية الشعور :

« يصبونه (الماء) فينصب ويريقونه فيختفي في الارض ويضعونه في كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بكل ما يراد به من الالوان . تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه الى السحاب وطوراً تقذف به الى الارض وآنة تماسكه بصقيعها فيتحول برداً وآونة تحمي عليه براكينها فيخرج ملتهباً . وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس اذا احسوا منه غير ما يريدون وهو بريء ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمر . وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بجميل . وهو بلا ثمن في اكثر بقاع الارض وارخص الاشياء في أقلها . انه مثلي يامي يذهب ضياعا ! » (١٢)

ما اوجع هذه الكلمة وأوجع المرارة التي أملتها ! لقد فعل الحزنُ هنا ما يفعلهُ في كل نفس صالحة فكان اليد المنبهة الخصب الجانية الخيرات . إنَّ لهف ايام ولواعج عمر انتجت ابحاثاً قليلة ولكنها فريدةٌ من نوعها في الآداب العربية . وسنقفُ على زبدة هذه الابحاث في الفصلين المقبلين اذ نعالجُ الباحثة ناقدةً ومصلحةً فنجد ثمت اكثر الآراء تعقلاً ورزانة . اولم يكن للحزن من منفعةٍ سوى انتباه ضحيتهِ الى ضرورة الاصلاح وعثورها على مواطن الضعف والسقام من بيئتها ، ولولم يكن لهُ من منفعة سوى تمزيق حجب الزهو

(١٢) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة

Digitized by Google · Original from PRINCETON UNIVERSITY

والغرور عن محيا الرصانة والحكمة — لكنى به قوة تسكب عليها البركات على كر الدهور :

كلاّ لم تمضِ اتراحكِ جزافاً، يا روح العزيزة ، اذ لا يتلاشى شيءٌ في هـذا الوجود العظيم ، ولا ذهبتْ منك القدرةُ ضياعاً لان الحياة والموت العوبتان في يد النظام المطلق نظام التحول الشامل . وما كان قومك بذلك النحول فيك الاّ القوم الرابحين !

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

(٦)

الناقدة

أليس النقدُ من تلك الملكات الفطرية المتسلسلة أدوارها في الطفل وفي الرجل على نمط واحد؟ فتكون في دورها الاول نظراً بسيطاً يعقبهُ انتباه ايجابي او سلبي، أي الانتباه لوجود شيء او لعدم وجودهِ . ثم يجيء دور المقابلة بين ما هو كائن وما يجب ان يكون . حتى اذا اكتمل فعل التمييز والمقابلة ، وحكم الذوق بافضلية احد الوجهين وانقصية الآخر، كان ذلك الحكم ما نسميهِ نقداً

كان الجمهور بالامس يتخيل وجود نصوص ثابتة مترفعة عن التحوير هي سلاح الناقد ، فرداً كان أو اقليةً قادرة . فاذا اثبت الناقد او نفى احتضنت رأيهُ الاكثرية بلا تمحيص ولا ارتياب في انها ماثلة امام الحقيقة بعينها . ويا لهول روعة تجمد المفكر إزاء ما قاساهُ الانام من جراء هذا الاعتقاد الفاسد والاستسلام الذليل ، في ماضٍ ما اكثر ما اورث الحاضر من

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

من الحفائظ والضغائن؛ أما الآن فالرأي العام، كالرأي الخاص، لا ينقاد الاّ الى من شاء الانقياد اليهم، حافظاً لنفسهِ حريةَ النقض والتأييد والمناقشة. والحقيقة ان عصرنا عصر انتقاد بلا نقدة، لان النقد اصبح جزءاً مدركاً من شخصية كل فرد، وانحصاره في افراد دون غيرهم ينافي الروح النقدية وينافي الواقع، اذ ايُّ الناس لا يحبُّ اشياءَ ويكره اشياء؟

على أن للنقد شرطين اثنين لا بدَّ منهما ليكون صائباً مفيداً:

الشرط الاول ان يكون قوة فطرية مكتملة لاجزئية، والشرط الثاني ان يكون الاطلاع والملاحظة والاختبار قد اوسعتهُ تهذيباً وتصفيةً. والشرطان لازمان متماسكان الاّ ان الملكة الفطرية اكثر ضرورةً لان وجودها يقبل المزيد والاتساع. وان لم توجد فجميع المطالعات والاسفار والاختبارات تعمل في محق القليل الذي أفلت من اصابع الطبيعة وهي تقذف الى الحياة بمن لم تشأ ان تجعله من اهل الذوق

لو نفينا عن الباحثة كلَّ صفة كتابية وجرّدناها من جميع نعوت الانشاء لظلَّتْ ناقدةً في كل كلمة خطّها يراعها. كانت

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

ناقدة بفطرتها التي ثقفها الدرس والالم والاطلاع على مناطق البيئة المصرية مما لم يكن ميسوراً لسواها . لانها بمركزها الاجتماعي كانت ذا صلة بجميع الطبقات. فبينا هي بوجاهة أبيها وزوجها من عشيرات الطبقة العليا اذا بها صديقة الطبقة الوسطى برفيقاتها في المدرسة وبتعاطيها التعليم قبل زواجها : ولما كانت تذهب الى قصر الباسل في الفيوم كانت تجتمع بنسوة البادية والفلاحات المحسوبات ، بما يأتينهُ من الزراعة واللقاط والخدمة المنزلية ، إحدى امتعة الرجل وجزءًا من ثروته . فتحادث تلك النفوس الخشنة بجهلها وتربيتها وعاداتها ، الرقيقة بأنثويتها واحساسها واوجاعها ، وتقابل في سرها بينهنَّ وبين الاخريات ذوات الدلال واليسار ، فتجد ان المرأة ان تغيرت منها الاثواب والاشارات فان وجوه الشقاء في حياتها متشابهة ومواضع الخلل واحدة في جميع الطبقات . فادركت وجوب الانتقاد والمعالجة ابتداءً باكثر الاعضاء سقماً ومبعث الصحة والمرض في جسم العمران . يجب ان يبتدأ بتعليم المرأة لانها الاكثر جهلاً . يجب اصلاحها السريع ليتيسَّر اصلاح الرجل. يجب ان يباشر بتحرير المرأة كيلا يكون المتغذون بلبنها عبيداً.

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

يجب ان يُحسَر غشاء الخزعبلات والاوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيهما، من زوج واخ وولدٍ ، ان معنى الحياة عظيم . هي المظلومة المنحنية امام الرجل العسوف ، هي المهضومة الحقوق الساكتة على مضض الهوان ، وترى ايُّ الهٍ او شيطان اباح الجور عليها من بدء ايامها الى منتهاها ؟ منذ بدء ايامها ؟ كلا بل قبل ذلك :وهاك حجة الباحثة :

« المرأة المصرية مسلوبة الحق ومظلومة في كل ادوار حياتها . نراها يتشاءم منها حتى وهي جنين فاذا ظهرت مولودةً تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة . ترى القابلة تحملها وهي منكمشة لا تبدي ولا تعيد كانما كان لها بعض الذنب في ولادتها . ترى اقارب النفساء وصديقاتها يكثرون لها الهدايا حتى اذا كان مولودها ذكراً ويقللون منها عدداً وقيمةً اذا كانت بانثى . نرى كل من نقل الخبر يطمح اليأس من عينيه ولسان حاله يقول ناقل الكفر ليس بكافر . فاذا انقضت ستة ايام كان سابع ايام الصبي عيداً توقد فيه الشموع نهاراً وتجلب انواع الحلوى وتعذف آلات الطرب . أما الصبية فيكتفى لها ببعض النقل ويحسب تفضيلاً (١)

حتى انتقاد تفضيل الصبي على الصبيــة ليس عندنا نحن الشرقيين فحسبُ ، بل عنــد اهل المغرب كذلك ، لا سيما في هذه الايام بعد ان فقدوا في الحرب ملايين الرجال فصاروا يطلبون الابناء ليسدوا ما ثلم من صفوفهم وخوفاً على البلاد من حروب مقبلات . غير ان هذا شيءٌ موقوت ، وتشاؤم الناس

(١) النسائيات

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

من الفتاة قديم ، فما هي أسبابهُ ؟ يقولون بأفضلية الصبي لانهُ يحفظ اسم العائلة . لستُ لأُناقش ما اذا كان في وسعهِ الاحتفاظ بذيالك الاسم بدون معاونة المرأة . ولستُ لأُلفت نظر احدٍ الى أن هذهِ مسألة اصطلاحية صرفة والى انها كانت موكولة الى المرأة ايام كان قانون الامة (Matriarcat) نافذاً عند بعض الشعوب القديمة (وما زال نافذاً في بعض الجهات من افريقيا الجنوبية)، والى ان صاحبات العروش ما زلن يتمشين عليه ، اذ ان الانثى التي ترثُ صولجان ابيها تناول اولادها اسم عائلتها دون اسم ابيهم

اللهمَّ ان اسباب التفضيل عند الاهل كثير . منها ان الفتاة تأخذُ نصيبها من ثروة اسرتها وتعطيها لرجل غريب ، بعكس الفتى الذي يزيد ثروة ابويهِ بزواجهِ وبارباحهِ جميعاً . اما المقامرة ، والسياحات ، والمضاربة وجميع اساليب التبذير التي يبتكرها الولد ليلتهم ثروة الوالد الكئيب فلاحساب لها ولا بأس بها ، أليس انهُ رجل؟ لقد امتدَّت يد النساء الآن الى كثير من أنواع العمل مدفوعةً بالحاجة ووجوب إعالة من لا معين لهم وضرورة اشغال الايام بفكرة جدية ، ومنهنَّ من أثرين كاعاظم

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الماليين وكان نجاحهنّ حسن العائدة على ذويهنّ . ولكن ما العمل ؟ إنهنّ نساء ! وربما كان سببُ التفضيل الاكبر من تلك الاسباب الغامضة التي تذوب حيالها متبلورات المنطق الثابت . كل اعمال الرجل حسنات ما دام « رجلاً » وكل الذنوب جائزة تغفر لهُ « لانه رجل » !

*
* *

ومقابل ذلك كل شيء يحسبُ على المرأة . تتدرّج الناقدة في سرد حياة هذه المخلوقة المسكينة فترى نصيبها من العلم قليلاً وترىء الطيبات عليها حراماً لانها « بنت » لا تصلح لغير أعمال المنزل ، هذا في الصغر . أما في الشباب « فيحجر علينا حتى في استنشاق الهواء النقي حتى في اختيار لون الثوب الذي نلبسهُ »(٢)

ان عدم حرية الفتاة في اختيار الثوب الذي تلبسهُ لا يرجع الى ازدراء الابوين بها بل الى نقصٍ في تربيتهما الاصلية وعدم ادراكهما وجوب تربية الصغار على الاستقلال في الاختيار والاعتماد على النفس . الشرقيون — كبعض الشعوب

---

(٢) النسائيات

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

اللاتينية — متأخرون جدًّا في هذه الطريق التي قطعت منها الشعوب الانجلوسكسونية شوطاً بعيداً . انَّ هذه تثقف الاولاد على التمييز والاختيار فيشبُّون أحراراً يعرفون ماذا يريدون ولاي سبب يريدونهُ. فكم من أم انجليزية وامريكية رأيتها مع طفلٍ لها أو طفلة تبتاعُ لهما في المخازن اثواباً أو أدوات مدرسية أولعباً يلتهيان بها، وتخيرهما في الانتخاب ضمن ما شاءت هي من حدود اقتصادية . وما أبهج مرأى الصغير ناظراً الى تلك الحوائج يقابل بينها مناقشاً نفسهُ حتى اذا قرَّر رأيهُ على أحدها سألتهُ أمهُ سبب اختيارها وأبانت لهُ منها العيوب والحسنات بالفاظٍ مختصرة وحجة مفحمة وتأدب تام كأنما هي لا تحادث طفلاً هو ابنها ، بل تحادث رجلاً غريباً عنها

وما أجمل دوائر التيقظ تتسع قليلاً قليلاً في عيني الصغير! وما أعظم الفرق بين هذه الام الرشيدة والام الشرقية الفظة التي رأيتها البارحة تشدُّ بذراع صغيرها قائلةً بصوت اجشّ وعبوسة قبيحة : « امش يا ابن الكلب ! » سيكبر هذا الولد واثقاً من ان أباهُ كلب ، وأمهُ امرأة كلب ، يعني كلبة ، وان وسطهُ جحيمٌ اسود لا متّسع فيهِ لغير الضنى والحزن ! كيف

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

تستلمُ تلك اليد الخشنة نفس الطفل الطريّة ، واذا عاملتهُ على هذه الصورة حين لا ذنب لهُ سوى ان ذكاءهُ المتنبه ونفسهُ الطُلَعة وقفت تستعرضُ بضائع نُشِرت في نوافذ الحانوت طالبةً التفهم والمعرفة ، فماذا تفعلُ بهِ ساعة يجني إثماً ساهياً أو متعمّداً ؟ وهل يستطيعُ هذا أن يحبّ أمهُ ويحترمها كما يحبُّ ذلك الغربيُّ الصغير أمهُ الصالحة ويحترمها ؟ كثيراً ما ينسى الابوان ان الاحترام يولّد الاحترام والحبّ يستدعي الحب ، وان معاملة أبنائهم لهما نتيجة لازمة لتصرفهما معهم . فكما أنْ لهما شخصية مستقلة ، وارادة ترغبُ في الخبرة ، وميولاً تريد ان تنمو وتصلح كذلك ، بل اكثر من ذلك ، للابناء المنتبهين رويداً رويداً ليقظة الحياة المنبسطة امامهم بهولها وجلالها . وأيُّ يدٍ تحسنُ قيادتهم بين أدغال الحوادث بحكمة وانصاف وحنان اكثر من تلك التي عيَّنتها الطبيعة لتضمهم وتداعبهم وتهذبهم وتؤاسيهم؟

وهكذا تتبع الباحثةُ الفتاة خطوةً خطوةً في دور التربية فترى في الأم الجاهلة اكبر عثرةٍ في سبيل النجاح وان البيت يفتأُ مفسداً من البنت ما تصلحهُ المدرسة ، حتى اذا وصلت الى

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

عمر معين « ذكرت الام لزوجها ، والفتاة تسمع ، ان البنت قد كبرت وانهُ يجب أن تترك الدرس والمدرسة لتتزوَّج ، وان فلاناً وفلاناً أرسل والدتهُ وأختهُ تخطبها »(٣) فاذا كانت الفتاة ذات عقل وشعور صغرت نفسها واغتاظت لجرأة الرجل الذي يهاجم حياتها الهادئة بمجرد استئناسه بالزواج منها. غير أنّ السواد الاعظم يلتفتن لامر الزواج وما فيهِ من لا مع جديد فيهمان المدرسة والتعليم وتنتهي امكانية التهذيب والاخلاق وهو قوام العائلة !

غريب جداً اننا نتعلم جميع الفنون والاعمال قبل ممارستها الاَّ فن تهذيب النفوس الصغيرة : الفتاة التي ترعرعت على جهل وغرور في منزل هذه حالهُ ، تحت مراقبة أم هذه درجة ادراكها ، اذا صارت ربة بيت واستلمت نفوس الاطفال فكيف تتكفَّل بحلّ مشكلة اسعادهم واعدادهم لحياة ينفعون فيها الغير وينتفعون ؟ لا ريب في ان هذا هو الاساس الاول لشقاء العائلة ، أساس يقوم عليهِ سوء التفاهم والمشاجرة المؤدية الى النفور المحزن بين أعضاء الاسرة الواحدة

*
* *

(٣) النسائيات

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

هنا تلمسُ الباحثةُ القفل وتفتح باب العائلة على مصراعيهِ لتجيل بنظرها في كلّ ما يختفي وراءهُ . فتبصر الفتاة في ذلك الدور الذي يسبق الخطبة . الخاطب والاهل يبحثون ذاك عمّا يرغب فيهِ من ثروة وهؤلاء عمّا ينشدون من جاهٍ. والفتاة بين هؤلاء الانانيين المستبدين كالعوبة لاصوت لها في الجماعة. يجب أن لا ننسى ان فريقاً كبيراً من البنات لا يهم كلاً منهن من الزواج الاّ زخرف الفرح والطمع بالاستقلال في منزلٍ تصبح سيدتهُ وتتصرّف في تنسيقهِ وادارتهِ كيفما شاءت ، سعيدةً بان لها « مملكة صغيرة » تنفذ فيها ارادتها . ربما كانت فكرةُ هذه الحرية المتواضعة من أهم المرغبات في الزواج . وقد يكون في هذا الفريق زوجات مخلصات وامهات صالحات . الاّ ان شحّ السعادة وتزايد الانشقاق في العائلات ينبئان بان غير المسرورات من زواجهن كثيرات ومعظمهنّ عائد شقائهن الى عبث الاهل برغائبهنّ ، وحملهنّ على قبول من رضين بهِ زوجاً بالترغيب ، او بالتوسل ، أو بالارغام الصريح . وليس هذا التحكّم من خصائص الشرق وحدهُ بل سمعتُ من أجانب وأجنبيات مختلفي الجنسيات ان هذه حالهم في بلادهم

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

وقد يكون هنا كذلك العنصر الانجلوسكسوني اكثر احتساباً برضى الاولاد من غيره

لما كنتُ أدرسُ الانجليزية أخذتُ يوماً اتحادثُ واستاذي بهذه المسئلة الحيوية فأخبرني انهُ لما خطب كانت الفتاة التي انتقاها ضئيلةً في عيني أمهِ لانها ليست « ذكيةً ولا جميلةً ولا متعلمةً ولا غنية » فقالت لهُ « لك أن تبحث عن فتاةٍ حائزةٍ لصفاتٍ اجتماعية اكثر من هذه» أجاب: «صفتها الوحيدة انها فتاة محبة وهذا يكفيني . أستطيع أن أبحث عمَّن تفضلُها في نظر الغير ولكنها تحبني وأنا أحبها ولا أريد غير ذلك ».فبعد ان قامت تلك الأُم بواجبها نحو ضميرها ومطالبها الشخصية قامت بواجبها نحو ولدها فاحترمتْ عواطفهُ وأذعنت

اني بكلامي عن العائلة عندنا واستبداد الاهل لا أعني الجميع على الاطلاق ، بل اعني الاكثرية . لان النفوس النيرة الكبيرة موجودة في كلّ مكان لا تقيدها الحدودُ الجغرافية ولا يسطو عليها مناخُ الاقليم . حدثني نابه من أعاظم المصريين انهُ بعد ان اختطب ابنتهُ أحدُ أبناء العائلات الوجيهة رأت الفتاة خطيبها وهو داخلٌ فلم يعجبها مع انهُ كان جميل

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

الطاعة حسن الهندام ،وحملت أباها على استرجاع وعده .وبعد مدة وجيزة جاء خاطب آخرُ يماثل ذلك مقاماً ويقلُّ عنهُ جمالاً فارادت أن تراهُ قبل البتِّ في الامر فأعجبها لانَّ « دمهُ خفيف » وتزوَّجت منهُ . وهو من اشهر رجال مصر في هذه الايام

وقد تكلمت الباحثة عن الزواج خصوصاً في فصل جعلت عنوانهُ « يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهنَّ : » ملقيةً الخطأ على الرجل وعلى المرأة ولا سيما على طريقة الزواج نفسها . وحصرت شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما في الاسباب الآتية :

« (١) جهل احد الزوجين بالآخر
(٢) زواج مختلفي الطباع كعالم وجاهلة وبالعكس او غني وفقيرة ومختلفي الدين والبلد
(٣) الطمع في الغنى بغير نظر الى الاخلاق
(٤) الزواج القسري
(٥) تأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه في احكام الزواج والطلاق
وهذه الاسباب كلها شعب لاصل واحد وهو عدم الحكمة . فاذا روعيت شروط الحكمة فقلّ ان نرى هذا الشقاء المخيم على بيوت المصرية الهادم لمعنى الزوجية . وخير للفتاة والفتى ان يعيشا اعزبين من ان يتزوجا بثالث هو البؤس والعذاب » (٤)

(٤) النسائيات

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

ثم أخذت بتفنيد صنوف شقائهما فعدّدت عيوب المرأة الجاهلة كعدم الثقة بالزوج وتصديق وشايات صويحباتها وجاراتها بهِ ، والغيرة الشديدة على حاضرهِ وماضيهِ جميعاً ، والتحزُّب لاقاربها وافادتهم من مال زوجها ما استطاعت في حين انها تبغض أهلهُ وتسيء معاملتهم ، والاثرة ، والمباراة ، والاسراف ، والبطالة ، والاهتمام بالزينة والزيارات ، واهمال الاولاد للخدم والمربيات ، وتقليد الاجانب في اللباس والحركات بلا تروّ ، والثرثرة والتداخل بامور الرجل . أيُّ شيء لم تذكرهُ ؟ أيَّ شيء لم تنتقدهُ ؟ انها لم يفتها حتى ولا التدخين ، ولا الضحك ، ولا العبوسة . انتقدت كل ما استطاعت انتقادهُ في تلك الصفحات القلائل ثم وقفت طويلا عند سرعةِ غضب المرأة وتهديدها بالفراق فقالت :

« كل شريكين قد يختلفان اختلافات بسيطة ولكنهما لا يذيعانها ومن أحق بكتمان السر من شريكي الحياة أعني الزوجين . والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلاً من اهتمامه بل يزيله بمجرد الفراغ من التكلم فيه » . « بقيت لي كلمة عن هؤلاء اللاتي يغضبن ليقبضن ما يبقى لهن من الصداق عند أزواجهن وهي عادة شائعة كثيراً عند بعض الطبقات . اما قبحها فجليٌّ لان المرأة بذلك تبرهن على انها تقدر النقود أكثر من الحياة والسعادة وهذا جشع لا يليق الا بالمرابين ومهووسي المال والمرأة يجب أن تكون مثال الدفء ومثال الرقة والنزاهة . وبعضهن يتذرعن بالغضب والاحتماء بالاهل ليصالحن الرجل والعادة أن يصالح الرجل زوجه

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

بقطعة حلي وثياب كثيرة فما أسخف هذه المقول . تفدي المرأة راحتها وهناءها وسعادة أولادها بذلك المتاع الفاني» . « والمنزل لا بهاء له الا بالمرأة كما ان قوامه الرجل فترك المرأة بيتها يمسخ ذلك الهناء المرفرف عليه ويسبب حزن الاولاد وانقباضهم كما انه يتلف وتعبث به ايدي الخدم فيخسر الرجل خسارة مضاعفة» . (٥)

وبعد فراغها من وخز المرأة التفتتْ الى « الآخر » ، الى الرجل ، ونضَّدت منهُ المساوىء المرعبة جاعلةً الطمع في رأس القائمة ، ثم الاستبداد بمال المرأة بعد الحصول عليهِ فقالت :

« بعض النساء يهددن بالفراق اذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ويذكر لهن الزواج ارهاباً فاي الامرين يختار المرأة البائسة ؟ » . المرأة مظلومة دائماً . اذا كانت فقيرة لا يرغب فيها وان كانت وارثة يطمع في مالها . والوارثة مظلومة ايضاً فاما أن لا تتزوج لتأمن الطمع والطماعين واما أن تتزوج على غير بصيرة كعادتنا » (٦)

ما اكثر مساوىء هذا « الآخر » المخيف عداً ! وليس الظلم أقلها . تتبعهُ الانانية وعدم مؤاساة المرأة في حزنها ، والزواج من غيرها ، والازدراءُ بها ، والتكبر عليها والضغط على جميع أنواع حريتها ، وكتم أسرارهِ عنها كانها هي شيء لا قدر لهُ ولا قيمة . . . عديدة ، مديدة ذنوبك ، يا اسرائيل! واما ما تغتاظ منهُ الباحثة بوجهٍ خاص فهو عدم امتزاجهِ بذويهِ وافادتهم من معرفتهِ وعلمهِ ، فهي تحتمل الجهل من الغبي الصريح ولكنهُ يحزنها جهلُ امرأة العالم وابنتهِ واختهِ .

(٥و٦) النسائيات

Google PRINCETON UNIVERSITY

وتنسب ذلك الى الخشونة التي يضيع بها الرجل تأثيرهُ الحسن في اسرتهِ . قالت ساخطةً :

« لا احب الاب يتكبر على أهله واولاده فيظهر لهم بمظهر الجبار العنيف ويظن ان ذلك استجلاب للهيبة وهو لا يعلم بما يشعرون » . « وهذا التجبر من جانب الاب يضعف الاخلاق في الطفل ويفسدها اذ يربي فيه الجبن والذل ثم الاستبداد متى كبر » (٧)

* * *

كانت من أنصار السفور مبدئيًا . ومن رأيها ان كل ما تحتاج اليهِ المرأة ولا تجدهُ بين النساء كالطبيب البارع والاستاذ الماهر الخ ، يجوز أن تستعين بهِ الرجل ، وجاهرت بانها لو كانت واثقة من كمال المرأة وتهذيب الرجل لما تردَّدت في اباحة السفور للجميع — كما انها تبيحهُ للراقية من النساء . وقد أبدت فكرها في ردّها على خطبة ألقاها زعيم السفوريين عبد الحميد افندي حمدي في نادي حزب الامة . قالت:

« لا نساء مصر متعودات الحجاب الآن فلو امرتهن مرةً واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبنه على انفسهن من الخزي وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائي من أسباب البلاء وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين (لا افهم كيف يكون السفور او أي شيء آخر شراً على « الدين » — مي) .واذا اردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلاً قليلاً الى ان يتم الهدم فتبني على انقاضه احسن منه ؟ » .

« ثم افدني ايها القارىء بالله ماذا تقول امرأة جاهلة او متعلمة تعليماً ناقصاً

(٧) النسائيات

Digitized by Google · Original from PRINCETON UNIVERSITY

لشاب تحتمع به اتباحثه في العلوم وهي لا تدرك اهميتها او تعلمه تشوراً لا يعتد بها . أم تناضله في السياسة وهي لا تعلم أين انجلترا من جزائر الارخبيل ولا يمكنها ان تفسر لفظة دستور او استعمار مثلاً . ام ماذا تفعل اللهم انها لا تجد شيئاً تقوله له الا ما قد تستحسنه من هيئتهوحسن بزته وهناك الضلال الكبير . رأيي ان الوقت لم يأن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربيةً صحيحة وهدبوا النشء واصلحوا اخلاقكم بحيث يصير مجموع الامة مهذباً ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الامة » (٨)

من الناس من لا ينتقدُ الاَّ بمرارة وبقصد الايذاء والإيلام والانقاص من قيمة المنتقد عليهِ . أما كاتبتنا فتنتقدُ بسردها الحكاية كمن يصف لك حالاً من الاحوال دون تعمد الانتقاد ، والمرارةُ تنقلب تحت قلمها ظرفاً فتبتسم حيناً ، وتبكي أحياناً . وتخال قطرات الدم سائلات من يراعها ساعة تذكر شيئاً يوجعها في أعزّ عواطفها ويلمسّ من نفسها أرقّ الاوتار حساً . كموضوع تعدّد الزوجات مثلاً الذي ترى فيهِ الظلم البحت والاستبداد الاقصى ولا تبرّرهُ الاّ اذا تعذّر عيش الرجل هنيئاً مع زوجتهِ الاولى . هاكَ صورة الضرتين:

« ارى « القديمة » حزينة « والجديدة » كذلك . فاذا قلت للاولى ما ذا يحزنك اجابت يحزنني ذلي وانكسار قلبي وانا على ما ترين لست انقص عن الجديدة جمالاً ولا ادباً وكنت ابذل جهدي في مرضاة زوجي اما الآن فلا . على انه لا يزال يسترضيني فيقول لي أنت أحب اليّ من الاخرى وانت أول من ملك قلبي وانت جميلة وأنت أنت الخ وانا لم اتزوج عليك لنقصٍ فيك وانما كان ذلك مقدوراً

---

(٨) النسائيات

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY

واذا ما سألت الجديدة عن سبب انقباضها قالت يحزنني ان أرى لي شريكة ومنافسة على ان زوجي يحقق لي انه لا يعبأ بها وانه لو كان مقتنعاً بها لما تزوج عليها وانه يريد طلاقها ولكنه يبقيها رحمة منه لتربي أولاده فقط » . « فزوج الثنتين غير سعيد كما قد يخيل له » . الاكثار من الزواج داء اذا تأصل صعب استئصاله »(٩).

في الضرّ ترى جميع أنواع المتاعب للرجل ،وأكبر اسباب الغم والتعاسة للمرأة ، فهو عندها مفرق العائلة واظلم مشتت لسلامها . قالت « هو اسم فظيع تكاد أناملي تقف بالقلم عند كتابتهِ » و «هو اسم فظيع مملوء وحشية وأنانية » . اذا شقي الرجل معزوجتهِ الاولى لهُ أن يتزوج عليها . فيهذا الظرف تسمحُ بالضر وتحرمهُ في ما عداهُ . « أما اذا كان يعد بقاءها (القديمة) معهُ منغصاً لحياتهِ أو كان كارهاً لها فليطلقها بتاتاً فربما يجد مع غيرها راحة وتجد هي كذلك مع غيرهِ » . « الطلاق شقاء وحرية والضر شقاء وتقييد. ألا انّ حزيناً حراً خير من حزين أسير ! »

***

اكتب هذا الفصل وبي عاطفتان قويتان . عاطفة الحزن وعاطفة العجز . فالعجز يجعلني قاصرةً دون تشخيص هذه العالي الغريبة عني لاني فتاة مسيحية أرى الضر شيئاً وهمياً

(٩) النسائيات

Google PRINCETON UNIVERSITY

لا وجود لهُ في قومي وقد أُلفيت بغيابهِ جميع صنوف الرزايا اللاحقة بهِ . ومهما تفهّمتُ هذه الاوجاع بقلبي النسأَني فانها تظلُّ عندي خياليةً ليس غير. أما عاطفة الحزن فتأتيةٌ من ان العائلة التي وجدت لتكون مستودع السعادة الطاهرة تصير على قولها مستنقع الحسرات والكوارث والقنوط . وهل يجدي اصلاح المصلحين نفعاً إزاء ناموس الالم النافذ على جميع الكائنات ؟ لماذا يعذّب الاب ابنهُ والولد أمهُ ، والغريب الغريب ، والحبيب الحبيب ؟ من أين تهجم جيوش الالم الدقيقة غير المنظورة مصادمة أشرف الميول ، جارحة أصفى النوايا ، ساحقة أخلص القلوب ؟ ما هذا ما نسميهِ ألماً وما هي الغاية منهُ ؟ اذا كان كما يزعم الروحانيون نتيجة ذنوب سابقات واننا نكفّر اليوم عن آثام الامس وسنكفّر في عمر آتٍ عن آثام هذا العمر ، اذا كان ذلك صحيحاً فقد كان يوم بدء أعمار الانسان فيهِ تألم هذا مظلوماً لانهُ تألم بريئاً. واذا سلّمنا بالمعنى الشريف الذي جعلهُ الروحانيون للالم فقالوا انهُ النار المطهرة من الفساد والواسطة المثلى للتهذيب والارتقاء ، فماذا نفكر ازاء من يتألمون ولا يستفيدون بل يتقهقرون مجدّفين على قوى الطبيعة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

والالوهية ، بل ماذا تقول في ما يقاسيهِ الحيوان من آلام جسمية دون أن ينتفع بهِ ؟ ان الذي تروعهُ معاني الالم يتقطع قلبهِ ازاء أوجاع صغار الحيوان ، فيرى الالم كما هو شيئاً هائلاً وحكماً صارماً تخضع لهُ الموجودات مُرغمةً مقهورةً وتخترع لهُ البشرية مخفّفات المعاني لتؤاسي يأسها وتنقص من بلواها . يخاف الناس ويرجون ، ويكرهون ويرغبون وظلامُ الالم مخيم عليهم ابداً ، فيبحثون عن الاصدقاء والمساعدين والمؤيّدين والمحبين ليأمنوا شرّ ذلك السواد القاسي . ولكن ، ولكن ! أليس هؤلاء الذين نحبهم ونحتمي في قلوبهم من مكايد الايام هم الذين يسبكون سيّال الالم في كؤوسنا صرفاً ويتفنّنون في التعذيب كانما الطبيعة ائتمنتهم على أسرارهِ ؟

ما هو الالم ؟ من أين يأتي وما هي الغاية منهُ ؟ هل يتغلّبُ عليهِ المصلحون يوماً فتعيش العائلة الجزئية بسلام وتترابط العائلة البشرية الكبرى برباط الامان ؟

أم سنظلُّ أبداً على ما نحن فيهِ كأنما الباري جلّ وعلا يُنشىء وراء سماواتهِ عالماً جديداً لا يتغذّى الاّ بعنصر الألم المتجدّد مع الثواني في حياة أبناء الارض ؟

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

(٧)

المصلحة

قدَّم يوماً أحدُ وزراء روسيا الى نقولا الاول تقريراً ضمّنهُ اقتراحاتٍ توسَّم فيها خيراً للاصلاح والارتقاء فلما انتهى القيصرُ الى هذه الكلمةِ كتب على هامشِ التقرير: « الارتقاء ؟ أيُّ ارتقاء ؟ فلتحذف هذه الكلمة من اللغة ! »

للاوامر الهمايونية أن تقضي على اسم الارتقاء في معاجم اللغة والتقارير الرسمية ، الاّ ان المعنى منهُ يبقى بنجوة عن الالغاء والتكبيل عاملاً عملهُ في الافكار وفي القلوب . أيظنُّ ذوو التيجان والقابضون على أعنَّة الامم انهم فائزون في مكافحة القوى الحيوية والقضاء عليها ، وما هم فائزون الاّ بارتدادهم خاسرين . حظر القيصرُ على الوزير استعمال كلمة غابَ عنهُ ان يحبس مجراها المندفع في نفوس الرعايا. ولما أن أقبل ذلك التيَّار الجارفُ على هاوية البلشفية اندكَّ يهبطُ فيها من أعالي الملكية المطلقةِ مكتسحاً معهُ رفيعَ العروش ومبطاش الصوالجة . ولو

Google PRINCETON UNIVERSITY

سبقت اليدُ المدبّرةُ ووزّعتهُ ترعاً وسواقي ترضعُ الحدائق وتروي المروج لماظلّ شلالاً عصيّاً يولولُ مبعثراً على الصخور. أكان ذلك لروسيا خيراً أم كان لها شراً ؟ سؤالٌ ما زال الجوابُ عنهُ دفيناً في صدرِ المستقبل الجدير دون غيرهِ باصدار الاحكام التاريخية

لئن كان النقدُ فطرياً في المرء فالاصلاحُ كذلك. النقدُ مزيجٌ من كرهٍ وحبٍّ : كرهٍ لما يُرغبُ عنهُ من موجودٍ ، وحبٍّ لما يرغبُ فيهِ من مفقودٍ . وهذا المفقود المرغوب فيهِ هو عنصرُ الاصلاح بعينهِ . لذلك كان كلُّ نقد اصلاحاً مضمراً ، وكلُّ ناقد مصلحاً محجوباً . أيُّ شيءٍ يحلُّ بنا لولا الاصلاح ؟ انهُ ان لم يتبسّم لنا بسمةَ التعليل والتسويف التفّتْ حولنا اكفانُ الجمود وتاقتْ جوانبُنا الى اخشاب النعوش ومضاجع البلى . انّ جمال كلّ شيءٍ قائم على الرجاء بالتحسن والنموّ والتقدّم ليصير في الغدِ أفضل منهُ اليوم ، وما مجدُ الانسانية الاّ في كونها اليوم اوسع قوةً منها البارحة وأشمل ادراكاً . لا أملَ بلا اصلاح ، وان لم يكن ثمّتَ أملٌ فما هو معنى الحياة ؟ كلّنا عالم ذلك ، على انّ من الناس من يلحقُ به

Google PRINCETON UNIVERSITY

من صدمات الايام ووخزِ الساعات ما يلفتـهُ الى ما لا يحفل به الآخرون ، فيصبح النقد والاصلاح غاية حياتهِ ومحوراً تدور حولهُ الافكار منهُ والاقوال

تلك هي باحثة البادية . قلتُ في فصلٍ سابق انها لا تعطي قارئها جناحين يطير بهما ، ولا تسكبُ لهُ من رحيق الفكر والخيال ما يعلو بهِ الى قوة الالمبس أو يحدو بهِ ايغالاً في هيا كل السرّ والالغاز ،ولا يهمها من خفايا النفوس غير ما هو معروف تشتركُ الجماعاتُ في تقـاسم خيراتهِ وشرورهِ . انها تبقى بين جدران بيئتها الاّ انها تحدقُ في مظاهر الاسى بعين يظلمها خيالُ الدموع فتكتبُ متهيجةً متأثرةً كأنما هي تحاربُ ذرّاتِ الشقاء بكلّ كلمة تخطها . رأت كل ما يتقيدُ بهِ قومها من عادات دهرية وفروض دينيـة واصطلاحات اجتماعية ، ورأت من جهةٍ أخرى ما لا بدّ من ادخالهِ من تحسين يؤهلهم للسير بكرامة في موكب القرن العشرين ، فنسيت أو تناست تأثرها لتبسط رأياً معتـدلاً يوفقُ بين القديم الجامد والحديث المتهوّر . كتبت للجميع لانهـا أرادت أن يفهمها الجميعُ ، ولم تقصد الاّ الافادة . يدلّك على ذلك تصريحها هذا :

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

« أريد مما كتبت واكتب للجريدة بعنوان النسائيات تخفيف ويلات الزواج على قدر الامكان . ولست أقصد كل رجل على الاطلاق كما اني لم اكن أقصد كل امرأة وانما الكلام على من فسدت أخلاقهم (وهم مع الاسف كثيرون) فسببوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية[1] »

وقد حاولت تخفيف تلك الويلات والتسوية بين الرجل والمرأة واختطاط الاسلوب لاصلاح شؤونهما ، بالقلم واللسان معاً . وهذا استهلال خطبتها الاصلاحية الاولى في نادي حزب الامة

« ايتها السيدات . احييكن تحية أخت شاعرة بما تشعرن . يؤلمها ما يؤلم مجموعكن وتجذل بما به تجذلن » . « ليس اجتماعنا اليوم لمجرد التعارف او لعرض مختلف الازياء ومستحسن الزينات وانما هو اجتماع جدي اقصد به تقرير رأي لنتبعه ولابحث فيه عن عيوبنا فنصلحها . فقد عمت الشكوى منا وكثرت كذلك شكوانا من الرجال . كلنا متظلمون وكلنا على حق مما تقول . بيننا وبين الرجل الآن شبه خصومة وما سببها الا قلة الوفاق بيننا وبينهم . هم يعزون هذه الحالة الى نقص في تربيتنا وعوج في طريقة تعلمنا . ونحن نعزوها لغطرستهم وكبريائهم » .
« و لاوفق أن نسعى للوفاق جهدنا ونزيل سوء التفاهم والتحزب لنحل محلهما الثقة والانصاف ولنبحث أولاً في نقط الخلاف »

اذن فغايتها صريحة وهي تريد اصلاحاً حاسماً لان الشقاق

---

(١) النسائيات . ومعلوم ان جميع فصول النسائيات نشرت في « الجريدة » قبل ان تصدرها مجموعة

Google PRINCETON UNIVERSITY

بين الجنسين يؤلمها . قد وجدت الوسيلة ، فلماذا لا يسيرُ عليها الحائرون ؟ انها كتبت دواماً كمن يرسل أقوالهُ من على منبر الخطابة ، وعندها استحسان لرأيها وأقدام وشجاعة ملازمة دائماً لجميع المصلحين .كم من الجرأة والثقة بالذات في هذه الجملة : « هو اجتماع جديٌّ أقصد بهِ تقرير رأي لنتبعهُ ولابحث فيهِ عن عيوبنافنصلحها» : هذه المرأة تشعر بقلبها ، ان لم تقرّر بادراكها ، ان المتفوّق بين ذويهِ رسول من لدن الله جاءَ يحملُ اليهم رسالة انما هي كلُّ غايتهِ في الحياة

كلُّ مقالاتها جديرة بالاهتمام ،وكلّ انتقاد واصلاح فيها يستحقُّ البحث والنظر ، غير اني أورد هنا وسائل الاصلاح التي لخصتها في بنود عشرة جعلتها خاتمة خطبتها الاولى في نادي حزب الامة قالت :

« بقي علينا أن نبين الطريق العملي الذي يجب ان نسير عليه .ولو كان لي حق التشريع لاصدرت اللائحة الآتية : —

(المادة الاولى) تعليم البنات الدين الصحيح اي تعاليم القرآن والسنة الصحيحة

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الاولي اجبارياً في كل الطبقات

(المادة الثالثة) تعليمهن التدبير المنزلي علما وعملاً وقانون الصحة وتربية الاطفال والاسعافات الوقتية في الطب

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء في مصر

(المادة الخامسة) اطلاق الحرية في تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد

(المادة السادسة) تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد في العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل ان يجتمعا بحضور محرم

(المادة الثامنة) اتباع عادة نساء الاتراك في الاستانة في الحجاب والخروج

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الاشياء والناس بقدر الامكان

(المادة العاشرة) — ليست هذه المادة الا ملحة مصرية — على اخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا

وليتم مذهبها الاصلاحي أضيف الى البنود السابقة اقتراحاتها العشرة في المؤتمر الاسلامي، وهذه خلاصتها :

« الاقتراح الاول : ذهاب النساء سواء في المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ في المساجد

الاقتراح الثاني . جعل التعليم الاولي اجبارياً وتكثير المجانية على قدر الامكان في مدارس البنات الموجودة حالا او انشاء غيرها

الاقتراح الثالث : تلزم جميع المدارس اميرية واهلية بتعليم الدين الاسلامي

الاقتراح الرابع : تعين في كل مدرسة للبنات سيدة مسلمة عاقلة تراقبهن كيلا يهملن واجباتهن الدينية ولا يخرجن عن عادة قومهن

الاقتراح الخامس : توسيع نطاق مدرسة الممرضات الحاضرة . والاولى ايجاد مدرسة للطب جديدة لتعليم النساء الصناعة تعليماً كاملاً بدرجة تساوي درجة الاطباء

الاقتراح السادس : تكثير المستشفات الخيرية والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والاطفال ويكون في كل مركز من مراكز المديريات وقسم من اقسام المدن واحدة على الاقل

الاقتراح السابع : اتخاذ جميع الوسائل لمنع الحيف الواقع على النساء المسلمات

Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

خينبه البوليس بان يراعي الآداب العمومية في الطرق والاجتماعات وان يسوق كل مخلّ بالآداب الى القسم

الاقتراح الثامن : السعي في تقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الاستطاعة خان شقاق النساء واختلاف الاخوة الناشئين من هذه العادة وما يتبع ذلك من الشقاق كل ذلك يدهور الامة في مهاوي العناء الادبي

الاقتراح التاسع : تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم من الصناعات الضرورية لجنسها كالتفصيل والتطريز والقيام على تربية الاطفال والخدمة حتى لا يحتاج الوطنيات الى غيرهن من الاجنبيات

الاقتراح العاشر : منع النساء من المشي في الجنازات ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التي لا وجود لها الآ في مصر »

عفواً يا سيدتي : ان عندنا مثلها في سوريا . . .

* *

هنا أطبق كتاب « النسائيات » شاعرةً بأنّ علامة استفهام كبيرة تتجسمُ فيَّ . أودُّ أن افهم كيف لم تفكر في وجوب اهتمام النساء بذوي الفاقة ، وضرورة تكوين جمعية خيرية نسائية بين المسلمات؟ لقد أذهلني دائماً أن أرى في هذا القطر جمعيات خيرية نسائية لجميع الطوائف والنحل الآ المسلمات ، مع ان المسلمين أغنى عناصر القطر وأرحبها كرماً وأقربها الى اتيان المعروف . وبما انهم العدد الاوفر كان المحتاجون من فقرائهم كثيرين . ان أعمال البر أقرب الاشياء الى قلب المرأة ولو فقدت هذه جميع دلائل اليقظة الفكرية فان

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

حنوّها يظلّ حياً جائلاً منسكباً على من يستحقهُ ويظمأُ اليهِ. لذلك لا أفهمُ إغضاء السيدات المسلمات عن تأليف جمعية برّ منهن (١)

وفي ما عدا ذلك . هل من معترض على صلاحية اقتراحات الباحثة؟ اني أرى شيئين بارزين من إطار هذا المذهب الصغير: أولاً وجوب فتح أبواب التعليم للمرأة . ثانياً وجوب انطباق كل اصلاح على التعاليم الاسلامية والعادات القومية. وتعصبها للامر الثاني جعل احدهم يقول عنها « انهُ لا ينقصها سوى العمة لتصير شيخاً » . على اني أتفاءلُ خيراً بتمسكها بالمصرية والاسلام ليكون المتعنتون اكبر ثقةً برأيها ، هي التي لا تقبل من الدخيل الاّ ما ليس عنهُ غنى

(١) مرّ بين كتابة هذه المقالة وطبعها شهوراً تألفت فيها جمعية « المرأة الجديدة » جاعلة احد اغراضها الاهتمام بالفتيات الفقيرات وتربيتهن وتعليمهن - وقد أقامت في فبراير الماضي سوقاً خيرية فنجحت نجاحاً كبيراً . ومع الثناء والشكر الذي تستحقه حضرات القائمات بهذا العمل الشريف أقول ان هذه الجمعية لا تكفي لسد الفراغ الواسع في عالم البر والحاجة . انه لا بد من انشاء جمعية خيرية نسائية « رسمية » تقصدها كل بائسة وبئسة . ان مشهد النسوة البائسات في الشارع يفطر القلوب . والمثريات بين المسلمات كثيرات . وقد وصل بعضهن الى درجة من العلم والرقي يدركن عندها وجوب اعالة هؤلاء المسكينات واطفالهنّ . ان أهم وأسمى ما تستطيع ان تأتيه المرأة المصرية في هذا الدور الخطير . دور الانتقال الاجتماعي . هو تأليف جمعيات الخير والاهتمام بالنسوة والفتيات الفقيرات . كل اصلاح نسائي لا يكون هذا أساسه اصلاح ناقص أبتر

Google PRINCETON UNIVERSITY

إننا في زمن مطالبهُ عديدةٌ واحتياجاتهُ شديدة ، وللمرأة كغيرها مكانٌ تحت الشمس ، وعليها واجبات لا بدّ من تتميمها نحو نفسها ونحو الآخرين . فاذا قدّر عليها أن تعول ذويها وهي ليست من أهل الخدمة والخياطة فكيف تحظر عليها فروع العمل الاخرى ؟ حتى وان لم تقدم على الدرس عن حاجةٍ بل عن رغبة بحتة واحتياج الى المعرفة والنور ، ذاك الاحتياج المعذّب المنبثق من أعماق الكيان ، فبأيّ عدلٍ يحكم عليها بالبقاء في سجن الجهل ، وباي انصافٍ تُمنع عن التصرف بما لديها من مشيئةٍ تطلبُ القوة وذكاء يطلب الغذاء ؟ كيف يحجر عليها في حريتها الشخصية البريئة ، وهل أوجد الباري هذه الحرية والعدالة جنباً الى جنب فكتب على كلّ منهما : « خصوصية للرجال » و « حقوق التمتع محفوظة للرجال » ؟

وعلى ذكر التعليم أودّ أن أقحم جملة معترضة وأقول كم من علم ضروري للبنين والبنات على السواء يهمل بتاتاً بينما هم يصرفون الاعوام في تحصيل آخر لا ينتفعون بهِ . نعم ان المرء يستفيد من جميع العلوم الاّ انهُ بحاجة ماسة الى بعضها دون

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الآخر واني لأضربُ مثلاً بواحدٍ منها. كلما طالعتُ في الصحف أخبار المحاكم والاحكام شعرتُ بان علم القانون والوقوف على ما جاز وما حرّم من الاعمال، من أهم ما يتلقنهُ أفرادُ مجتمع منظم يسير تحت نفوذ تشريع واحد. إن المرء يجبهُ القانون في كل خطوة يخطوها وفي كل أمر يأتيهِ. يرتكب المخالفة والجنحة لاهياً، وقد يفقد ثروةً أو يرتكب جناية على غير علم منهُ، ويُعاقَب شديداً على جرائم لا وجود لها في تقديرهِ ولا هو ينتبه لها الاّ حين صدور الاحكام بها. كذلك في أعمالهِ اليومية يحتاجُ أحياناً الى ايضاحات صغيرة في ذاتها الاّ ان جهلهُ اياها جسيم النتائج. فيلجأ الى السماسرة والمحامين وكتّاب المحامين والموظفين العديدين — وقد يبتغي ايضاحاً فلا يلقى الاّ تعقيداً. فتتعطل مصالحهُ وترتبك شؤونهُ. ولا يقفُ على ما يريد الاّ ساعة تنقضي فرصة الاستفادة وتلافي الشر. وكل ذلك أساسهُ جهل أصول القانون وجهل أساليب التصرف المعينة في أحوال مخصوصة.

وما يقالُ في الرجل يزاد عليهِ في المرأة. لا سيما المرأة المسلمة التي يقوم حجابها جداراً بينها وبين دوائر الاعمال

Google PRINCETON UNIVERSITY

فيتاجر بجهلها الوكيلُ والقيم والحارس والكاتب ومن نحا نحوهم فيتلاعبون بمصالحها ما شاءت لهم الاطماع تلاعباً . فاذا كانت المدارس تعني الآن بتدريس علم الصحة البدنية لأهميته فاحرِ بها أن تدرّس مبادىء القانون وهو علم الصحة الاجتماعية . وعلى اللبيب المتيقظ رجلاً كان أو امرأة ، أن يدرس ما استطاع منهُ في وحدتهِ كيلا تصادمهُ البلية ولات ساعة ندم

* *

رأيُ الباحثة في الخطبة والزواج معروف تقبلهُ الاكثرية المتنورة ان لم يكن عملياً فبدئياً . لقد قالت في لائحة خطبتها في نادي حزب الامة — وفي جميع مقالاتها عن الزواج — باتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم. وقالت في الاقتراح الثامن من اقتراحاتها في المؤتمر الاسلامي بوجوب السعي في تقليل الزوجات . وهما رأيان في منتهى التعقل والصواب . ومما ينشر بالخير ان تعدُّد الزوجات أصبح نادراً في الطبقة الراقية وقلَّ من هؤلاء من يتزوجون بلا اجتماع وتعارف . وانتباهُ الآباء والفتيات لهذا الامر والعمل بهِ انما هو في مصلحة المرأة المصرية كما انهُ في

Google PRINCETON UNIVERSITY

مصلحة القومية المصرية . والاَّ فما أسهل أن يتزوج الشاب من امرأة أجنبية تُشربهُ روح وطنيتها فيتزوجها مبصراً بدلاً من أن يقترن بالمصرية كفيفاً

وقد ارتأت اتّباع عادة نساء الاتراك في الاستانة في الحجاب والخروج . تُرى أتعني عادتهن منذ اثنتي عشرة سنة، أم عادتهن المتحركة مع الحياة، المتغيرة بتغير الاحوال ؟ إن المرأة التركية تحركت كثيراً في هذه الاعوام وقد كتب بعض مراسلي صحف الفرنجة في الاستانة انها صارت تسير في الشوارع سافرة بزيّ باريسي . كذلك تحركت المرأة المصرية. وكان ان قامت مظاهرات نسائية في ابان الحركة الوطنية في الربيع السابق فلم يعترض الرجال ولم يقابلوا هذه النهضة الجميلة بغير الرضى والاعجاب. ثم كان ان لجنة ملجأ الحرية أعلنت في أواخر مايو أو أوائل يونيو رغبتها في اقامة سوق خيرية تبيعُ فيها الفتياتُ المصريات أزهاراً مساعدة للملجأ ، فهبت الصواعق والزلازلُ في وجه هذا الاعلان واستاءَ الجمهور استياءً شديداً

وانا قرأت احتجاجاتهِ بتعجبٍ واحترام : التعجب لان

Google PRINCETON UNIVERSITY

سخط اليوم لا يتفقُ مع رضى الامس مع انـ أعمال البر لا تنقص أعمال الحماسة الوطنية شرفاً اجتماعياً ، وان فاتها شرفاً اخلاقياً. أما الاحترام فلأن ذلك الإباء صادرٌ عن طائفة كبيرة من المصريين، وجميع الآراء القومية جديرة بالاحترام لانها تعرب عن نفسيات الاقوام وعقلياتهم . ولـكني عدتُ على رغم مني اتبين أحوال المرأة التركية . ففضلاً عن انها اشتغلت في مصالح التليفون والبريد والتلغراف وغيرها فان الحركة لم تقتصر على طالبات المعاش . اذ أن الساطانة حرم السلطان محمد الخامس ذهبت الى احدى مدارس البنات في الاستانة لتتصدَّر حفلة ختام الدراسة الثانوية ، ووزعت بيدها الجوائز على المبرزات من الطالبات . ولما زار الامبراطور شارل الهبسبوري الاستانة وذهب لمقابلة الحضرة السلطانية حضرت الحرم السلطاني تلك الزيارة الرسمية في قاعة التشريفات من وراء الحجاب . قد يقال ان هذا ليس سفوراً بحتاً .صحيح. ولـكنهُ يشبه المقدمة ولم يسبق لهُ مثيل ، على ما أعلم ، في تاريخ سلاطين بني عثمان .واذا قيل إنَّ هذه الاَّ اخباراً طيرتها البروق في ذلك الحين ولا يسهـل التثبت من صحتها ، فماذا

Google PRINCETON UNIVERSITY

تقول في السوق الخيرية التي أقامتها في الاستانة جمعية نسائية قبل نشوب الحرب بشهور قليلة وقد برزت فيها سيدات وأوانس البيوتات الاسلامية الكبيرة ،ونشرت صور بعضهن يومئذٍ مجلة « الايلوستراسيون » الفرنساوية ؟

ليس ما أوردهُ هنا الاَ سوانح لا قيمة لها في الاصلاح المرجو ،ولا أهمية لما اقولهُ أزاء ما يرتئيهِ أساطين المسلمين . ثم هل يجدي الاحتجاج والاقتراح نفعاً ازاء التطوّر والانتقال المحتّم من حالٍ الى حال ؟ وباحثة البادية التي يعرفُ من قرأ كتاباتها تعصبها للمصرية والاسلام وغيرتها في المحافظة على العادات الشرقية ،تقول بالسفور ليس اليوم ولكن في المستقبل لان المرأة ليست الآن على استعداد لهُ لا هي ولا الرجل . ولقد سمعتُ منها ذلك شفاهاً بعد ان قرأتهُ في « النسائيات » وأجدهُ الساعة في مقالي الفرنساوي الذي كتبتُ تحت تأثير المقابلة الاولى . وفيهِ ما معناهُ :

« بعد تناول الشاي تحادثنا في تحرير المرأة والحجاب الذي يحاول بعضهم تمزيقه فقالت :

« سيمزق الحجاب عن قريب ونحن سائرات حتماً نحو السفور ولكن ايكون ذلك لخيرنا ؟ أنا من القائلين بتحرير المرأة ولكن علينا ان لا نحتضن الحرية دفعةً واحدةً لنأمن شرها . ليس من الممكن ان نخرج من الظلام الحالك الى النهار

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الساطع دون ان تبهرنا الانوار فتتضعضع البصائر ولا نعود نرى الاشياء في مكانها كما هي »

« قلت مصممةً على ابقاء المناقشة في هذا الموضوع : حقاً ان الابصار تنبهر في الاوقات الاولى فتخطىء النظر والحكم ثم لا تلبث ان تعود الى مقدرتها الطبيعية. في الاندفاع الاول للتحرير النسائي لا بد من بعض الفوضى ثم تعتدل الشؤون وتتبع صراطاً سوياً »

اجابت بقوة : « كلا ! محجوبات اليوم يجب ان يبقين محجوبات دائماً . اما بناتنا الصغيرات ... »

قلت : « نعم . البنات الصغيرات اللاتي ما زلن جالسات على مقاعد الدراسة ويلبسن البرنيطة الافرنجية ... »

قالت : « قلت نعم . أولئك يستطعن متابعة السفور اذا عرفن حدود الحرية وتلقين تربية متينة. ولكن انى لهن ذلك وامهاتهن على ما هن عليه !..» (٣)

الامهات ! تتوقفُ عند سماع هذا الاسم امام كل صلاح وكل فساد ، وتتطلع الى حاملاتهِ حيال كل تربية اخلاقية وكل إصلاح اجتماعي . لئن كانت الجنةُ تحت أقدام الامهات فان الجحيم بين ايدهن ، ولهن أن يكنّ لذويهنّ ولوطنهنّ نعماً او جحيماً ، عظمةً أو هواناً . لو ادركت معنى هذه الكلمات التي طال ترديدها كلُّ فتاة ، وبذلت مجهودها في اتيان ما في مقدورها ، لضمنت للذراري تربيةً عالية ورفعةً مقبلة. لو ادركت كلُّ امرأة ان في قبضتها السعادة والشقاء لعرفته

(٣) "Musulmane d' Aujourd'hui" نشرت في جريدة « البروجريه »

Google PRINCETON UNIVERSITY

قيمة الواجب وكبرت في عيني نفسها ، وفهمت هـذا العناء العذب والمجد الخفي الحلو في أن تكون مليكة الاسرة . وإذن لاصبحُ الشرق شرق العلوّ والقدرة كما انهُ شرق الشمس والقمر . عبثاً يقتحم الرجل منطّق الذرى . ان لم تكن رفيقتهُ في أفقهِ المعنوي فانها تقتلُ مواهبهُ بسخافتها وتعذبهُ بمطالبها ، وتسيء تربية أولادهِ بتربيتها السيئة ، وكلما حاول التحليق فوق جبل كانت هي جبلاً معلقاً في عنقهِ تشدُّ بهِ الى الهاوية بدلاً من أن تكون بتشجيعها واعجابها جناحين لنفسهِ . كلُّ اصلاح وكلُّ نظام جدارٌ لصرح العمران والعائلة ، المرأة اساسهُ . لترتفع الجدرانُ الباذخة المزخرفة ما شاء ذكاء الباني ومجهودهُ ارتفاعاً ، ولكن اذا لم تقم على اساس خال من الضعف ، سليم من الشقوق ، تمرُّ الرياح فتتداعى وتعصف العاصفة فتنقضها حجراً حجراً

***

والوسيلة الوحيدة لاصلاح المرأة هي تعليمها . لان العلم كما قالت الباحثة :

« منور العقل على أي حال سواء عمل به أم لم يعمل » . « نحن نعلم أن نقص تربيتنا الاولى وتربية اخواتنا لاشك نتيجة جهل أمهاتنا فهل نعرف الداء ولا

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

مداويه وقدقال الحديث الشريف لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ؟ ان المدارس مهما اجتهدت في تثقيف عقول النشء وتهذيبها فان المنزل له تأثير خاص بالاطفال . واذا شعر تلميذ أن أمه عالمة أو لها نصيب من علم فانه يسعى جهده ليريها انه أهل لحبها وتقديرها اياه فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم لتكون الصلة شديدة بينه وبينها. فتعامنا الحالي ناقص يجب أن يزاد عليه لا أن ينقص منه .أما ما أشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعلم وحقهم أن ينسبوه للتربية؟ .» « تلك التربية في الحقيقة يجب أن تكون من أعمال البيت لا المدرسة . ولما كانت بيوتنالم تبلغ الدرجة التي تؤهلها لاحسان تربية الاطفال فقد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لاصلاح شأن أنفسنا ثم اصلاح النشء . ولا يتم ذلك في لحظة كما قد يتوهم » (٤)

كلا لايتم ذلك في لحظة لان التربية كالعلم تكتسب شيئاً فشيئاً وتظل مكتسبة طول الحياة . والعلم هو العلاقة الوحيدة بين الانسان وبين الاشياء والسلك السمباثاوي الجامع بين الفكر الفردي والفكر الكوني . هو اليد القادرة الحاذقة التي تحسر اللثام عن اسرار الحياة وبه وحده ينتبه المرء لقيمته كفرد وكانسان . لا ذل الا في الجهل ولا رفعة بدون معرفة . انما هلاك النوع البشري في سد ابواب الادراك وحذف امكانية التعلم والتعليم . ولكن مازال الانسان متناولاً من بحار المعرفة والنور فهو سائر الى الامام مهما ألبست عليه السبلُ

---

(٤) النسائيات

تقول الباحثة أن التربية من خصائص البيت لا المدرسة وفي فرنسا اليوم مشروعٌ جديد لنزع الولد من حضن العائلة وهو في السنة السابعة من عمره ليتلقَّى تربيةً اخلاقية. أليس هذا المشروع ناتجاً عن ملاحظة عدم كفاءة الامهات في التربية المطلوبة؟ على ان هناك تربيةً اخرى هي تربية الذات. وقد ذكرتها المُصلحةُ تلميحاً حيث قالت «فقد وجب علينا ان نضاعف مجهوداتنا لاصلاح شأن أنفسنا ثم اصلاح النشء».
ان الذين يسعدون بتربيةٍ متينةٍ في الصغر قليلون في الشرق، ولعلهم ليسوا بالكثير في الغرب، ولكن يكفي أن يكون المرء حساساً راغباً في الرقيّ ليباشر اصلاح نفسه. هو يستطيع ذلك في كل ادوار الحياة وفي أي عملٍ من الاعمال. ولا يلبثُ الامرُ المستهجن في بادىء الامر ان ينقلب لذة كبيرة وقوة نامية. وربما كان اكثر الافراد تأثيراً في المجتمع أولئك العاكفون على تربية ذواتهم، وهؤلاء يستفيدون من الكتب فائدةً مزدوجة

من اعتقادات الناس عامة ان العلم شيء والاخلاق شيء

آخر ، وقد يكون هذا ظاهراً في احوالٍ كثيرة الاَّ انهُ لاغٍ عند من يتعاطون اصلاح نفوسهم . عندهم يتمزج العلم بالاخلاق وتتوحّد المعرفةُ والتربيةُ فتصير قوةً رفيعة. وليس اقرب من العالم الى الخلق السامي لان العلم يرينا عظمة الانسان وجلال الوجود وقدرة الالوهية الشاملة ، فيصبح العالِم محبًّا ويتوق الى الصلاح . اذ لا شيء يحثُّ على الصلاح والرفعة الاخلاقية كالحب العميق الاكيد

ألا فلنذكرنَّ ذلك جميعاً ؛ وأنتم أيها الجالسون على مقاعد المدارس فتياناً وفتيات ، المطلُّون من وراء السطور على غرائب الحياة وخفاياها وممكناتها ، انتم الامل الذي لم يذوِ بعد ، والزهرة النضرة التي لم تفاجها السموم ، لو ذكرتم اننا في عصرٍ عظيم لكنتم شيوخ حكمة في شبابكم : اننا في عصر لا مثيل لهُ في التاريخ ، فلا يغفر اليوم للفرد ان يكون ضعيفاً ضئيلاً لان الاحوال تطلب الطبع الكبير والارادة القوية ورجال الجد والعمل . فان لم يعدْ في نصوص الآباء ما يُرضي مطالب الابناء فما الواجب الاَّ اكثر خطورة على الذرية الحاضرة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

قد تغلطُ هذه الذرية في تأويل معاني الارتقاء ولكن عليها ان تتجنب الخطأ بدرس اغلاط من كان لها سابقاً . وقد تلقى فشلاً مثلما لاقى السلف ولكنها ستجعلُ اهتمامها مملوءًا بثقة في الفوز والغلبة . وستجتهد على الاقل في فتح طريق الارتقاء للذراري المقبلات. واي فخرٍ اعظم من فخر من يهيء السبيل ؟ أليست قيمةُ الباحثةِ في انها حَفَرَت خطًّا الاصلاح بدموعِ الاخلاص واخلاصِ الدموع ؟

Google PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

ق

عا لا

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

قاسم امين و باحثة البادية

(٨)

المقابلة بينهما .

« فباحثة البادية بين النساء المصريات بل المسلمات بل الشرقيات عموماً لا يقل فضلها في الضرب على مساوىء الاسرة عندنا والحض على وجوب تعليم المرأة لتحرير عقلها وتقويم اخلاقها بالعلم الصحيح عن فضل قاسم امين في وجوب تحريرها . وان كانت لم تطلب لها هذا التحرير الى الغاية القصوى مثله . لانها لم تطلب الغاء الحجاب بالكلية . وهو رأي في نظر البعض وجيه »

الدكتور شبلي شميل (١)

« نحن لا نكتب طمعاً في ان تنال تصفيق الجهال وعامة الناس ... وانما نكتب لاهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل فهي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها ان تحل مسألة المرأة المكان الذي تستحقه من العناية والبحث . »

قاسم امين (٢)

« حبذا لو تصفح هـذا الكتاب النفيس (تحرير المرأة) كل من يغار على وطنه وأمته وساعد مؤلفه في بث آرائه بين الجمهور »

المقتطف (٣)

للحياة في ابنائها مآرب . تعطي بعضهم نفساً يكهربها الفكر والعاطفة وتلقي في اعماقها وديعة النبوغ فيصير بها

(١) انظر باب التقاريظ في « النسائيات » (٢) « المرأة الجديدة » (٣) في تقريظ كتاب « تحرير المرأة »

Google PRINCETON UNIVERSITY

صاحبها كأنما هو النقطة المركزية التي تتصل بها اسلاك جميع الشعورات والخبرات والفكرات والاعمال . ما طغى ظالم في الارض الا اهتزت منهُ الجوانح حميـة وحنقاً . ولا استبدت جماعة بجماعة او جنس بجنسٍ الا انطلق صـوتهُ يدمدم كالعواصف لانهُ صوت انفجرت فيهِ اصوات من يتوجّعون ولا يدرون كيف يتظلمون . ولا ضربت العلل الاجتماعيةُ في بيئة عثواً الا وحمل مشراط الجرّاح ولفائف المؤاسي وقام يبضع يوماً ويضمد يوماً . تنزل بهِ وبجاره نكبة واحدة في آن واحد فيئنُ الجار كفرد بشريّ ، ويصرخ هو وفي صراخهِ عويلُ جميع الذين قضوا وكانوا قبل الموت فريسة اليأس والهوان . وقد تكثر المحنُ على هذا « السعيد التعس » لانهُ كما ان البلسم الشافي لا تجود بهِ الشجرة العطريةُ الا بعد ان تقشرثوبها ويتجرّح صدرهافتجولُ حول كلومها اليدُ الشديدةُ متلمسةً السائل الزكي — ، كذلك لا تخرج المناداةُ بالاصلاح القومي والتقويم العمراني الا من اعماق نفسٍ شققتها نصال الرزايا وجالت يد الالم تجسُّ فيها آثار الجراح بلا شفقة

تشيخُ الامهاتُ مناولات بناتهن قبس الحياة المنير ويظلُّ .

الهاتف العتيد يتنقل محجوباً بين الاجنة والمواليد من آهل الدر ونزيلها ، والخمول الدهري مخيمٌ على الجماعة الى ان يجيء وقت اليقظة . اذ ذاك يبرز هاتفاً في الناس فيجفلون . فيلقاه بعضهم ساخطاً محتقراً ، وغيرهم ناقداً متعنتاً ، ويصغي آخرون بمسامع النفس والرغبة ، وبدهشة الحب والاعجاب . وسواء صمت آذانهم جميعاً ام كانوا من المنصتين فان صدى الصوت يظلُّ متردداً حول الافكار والعادات حتى يندمج فيها ، فلا يلبث ان يصير الرأي واقعاً والاقتراح اصلاحاً . لماذا يجيء هذا الصوت الفعال من افراد دون افراد — مع ان الهاتفين كثير — وفي زمن دون آخر ؟ ذلك سرٌّ من اسرار الحياة . وللحياة في الامكنة والازمنة والافراد مآرب

لم يكن قاسم امين مصري الاصل وان كان مصري المنبت والبيئة ، وتام التمصر وطنيةً واخلاصاً . لكنَّ الحياة اختارتهُ ليقول ما لم يقلهُ احدٌ في مصر الحديثة قبلهُ ، وليترك في النشء اثراً جليلاً لم يكن لغيره . لقد قرأت كتبهُ بعد « نسائيات » الباحثة في عام واحد (١٩١٤) فبدهيٌّ ان يمتزج ذكراهما في نفسي ، حتى أني لا افكر في الواحد الا تناسق

Google PRINCETON UNIVERSITY

اسم الآخر ومذهبهُ في خاطري . واني لأحسبُ من واجب الاقرار بالجميل ان اكرّس له سطوراً في ختام هذا البحث لانهُ عمل لغاية سعت اليها الباحثة بعده وان كان عمل كلٍّ منهما مدفوعاً بفطرتهِ الخاصة ، سائراً نحو الكعبة المشتركة في طريقين يتحاذيان ويتباعدان على طول المسافة . لقد نفت الكاتبة عن نفسها اتباع مذهب قاسم ، والتشيع له ، بقولها في ردّها على قصيدها شوقي بك .

« فعلام اكثرت الملا مة وانضممت لعذّلي
وسقيتني من مرّ قو لك مثل نقع الحنظل
ونسبتني حيناً لمذ هب قاسم وابي علي
تمنين وبلك انني امارة بتبذل »

وهو انكار يدل ايضاً على انها لم تنصفهُ — ولا أجرأُ ان اقول انها لم تفهمهُ . وكيف اجرأُ على ذلك وانا اعتقد على رغم مني بان تأثيرهُ فيها كان عظيماً ، وانها لم تتناول القلم بشجاعة الا لأن قلمهُ اوحى اليها مهيئاً لها في النفوس سبيلاً وواضعاً في الافكار قابليةً واستعداداً . انها لمست مثلهُ نقطاً معينة وارتأت إصلاحها تقريباً على الوجه الذي يطلبهُ . وهل يمكن ان لا تنفعل امرأةٌ راقيةٌ بكتابات هي الاولى من نوعها ، ممن

Google PRINCETON UNIVERSITY

لم يرد للمرأة وللامة الاّ خيراً ؛ لذلك اعود مجاهرة باعتقادي بانها ابنتهُ بالفكر والجرأة وتلميذتهُ في المناداة باصلاح شؤون النساء . ولا ينفي ذلك ما بينهما من خلاف زهيد . لان الاستاذ والتلميذ وان اتحدت كلمتهما ، فانَّ كلاً منهما يظل جارياً وراء طبيعتهِ يظهرها وينميها . وابينُ شاهد على ذلك نجدهُ بين ذروتي الفكر الاغريقي : افلاطون وارسطو . فان كان افلاطون زعيم الفلسفة الايديالستية الكمالية الذي لا يبارى فان التلميذ ارسطو انفصل عن استاذه حتى صار اسمه مرادفاً لاسم الفلسفة العلمية العملية

* * *

هي تكتب كما تتكلم بفطرتها البسيطة ، وهو كذلك يكتبُ كما يتكلم بفطرتهِ البسيطة . الاّ ان فطرتها هي نسائيةٌ فتنتقدُ وتنكت وتتألمُ وتشفقُ ، وترتقي منبراً خيالياً تخطبُ بالاصلاح ، ثم تضحك وتبكي ، وتأتي بجميع الاقوال والحركات التي تجعلُ المرأة محبوبة كالطفل ، بليغة كالشاعر ، خلابة كالسحّار . أما هو . . . فقلبٌ تثقله العواطف الطروبة وفكرٌ شغف بالعدل والانصاف والحقيقة . يحبُّ الخير والصلاح كما

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

انهُ يحب اللفتات الحلوة والكلمات اللطيفة. في ثنايا روحه شاعرٌ ينشدُ وينوح ساعة يقول ·

« يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوباً واذا كان غير محبوب فيجد في الم لذة اخرى مشابهة للسكر ». « اكثر الناس لا يفهمون من الحب الاّ انه أكلة لذيذة اذا حضرت اكلوها هنيئاً واذا غابت استعاضوا بغيرها . والحقيقة انه احساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس اخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج العليل الى الشمس والغريق الى الهواء . نار بلهب القلب لا يطفيها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالاً . ومرض يقاسي فيه العاشق عذاباً يظهر باحتقان في مخه وخفقان في قلبه واضطراب في اعصابه واختلال في نظام حياته يظهر على الاخص في الاكل وفي النوم وفي الشغل · ويجعله غير صالح لشيء سوى انه يقضي اوقاته شاخصاً الى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً أوصافها وحركاتها واشاراتها وكلماتها · نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل انه ماش في طريق مفروس بالورد او راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية فوق فوق قريب السماء · وفي هذه اللحظة يكون سعيداً اسعد من اكبر ملوك الارض فاذا انقضت عاد الى ما كان فيه من العذاب والالم » (٤)

في هذا المزاج الذي جمع بين الذكاء الفطري والمعرفة المكتسبة والخبرة الواسعة ، بين جدّ رجل القانون ودقة الاديب الطروب يتكوّن الاحتياج الشديد الى الاصلاح . لاننا اذا أردنا اصلاحاً في التعليم مثلاً فلا ننتظرهُ ممن لا يحسنون القراءة، واذا أردنا تعديل القانون وتنقية الاحكام

(٤) « كلمات » قاسم امين

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

فلا نطلبهُ من مستبدّ قانونهُ أنانيتهُ . واذا شئنا تصفية الذوق وتلطيف الشعور فلا نلجأ الى الطبائع الخشنة والشمائل الضخمة بل نأمل في الفكر المصقول والعقل الراجح والنفس المتقدة عواطف ، لتسوق بالناس الى حبّ التحسُّن والرفعة المعنوية . ورقيقُ القلبِ نافذُ الفكر يتعذَّبُ بمعاشرة من لا يشبههُ ، ولا يميلُ الاَّ إلى من تفاهم معهُ ، فينتخب أصدقاءهُ انتخاباً لا يجعلهُ متساهلاً فيهِ احتياجهُ المؤلم الى خلٍّ وفيٍّ . إقرأ كيف يصور قاسم الصديقين :

« تأمل في مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كلّ منهما روحه في روح الآخر فيسري بعقلهما من موضوع الى موضوع وينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الآمال والآلام والقبيح والحسن والناقص والكامل . كلّ عمل أو فكر او حادث او اختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيد نفسيهما لذةً جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة احدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وادب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر فيكسبه لذةً جديدةً ويزيد في رابطة الالفة بينهما عقدة جديدة » (٥)

فاذا كان هذا ما يطلبهُ من صديقهِ فماذا تراهُ يطلبُ من تلك التي هي زوجتهُ ، وقد قيل ان العاقل ينتخبُ لنفسهِ امرأة جامعةً لكلّ الصفات التي يريدها في الصديق ؟ ماذا يطلب من المخلوقة التي ينفعلُ الرجل مرغماً بتأثيرها في كل أدواره

(٥) « تحرير المرأة »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وفي كلّ خطوةٍ يخطوها سواء شاءَ أم لم يشأ ، ينفعل بتأثيرها غريبةً وقريبةً ،عابرةً في سبيلهِ أو شريكةً لهُ في حياتهِ؟ ماذا يطلبُ ، وهل عنـدهُ ما هو طـالبُ بحق ؟ هو يجيبُ عن هذا السؤال :

« وكل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمرّ به بدون ان يشعر حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط نفساهما ببعض حتى يذهل كل عن ايهما يتكلم وايهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وامه او اخته او زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فانا نشفق عليهن ونحن اليهن ونعذرهن . ولكن لا تكمل محبتنا لهن لان الحب التام هو ذلك التوافق وهو معدوم »(٦)

هو يعرف المرأة لانهُ يعرفُ الرجل ، ويعرفهما معاً لانهُ يعرفُ الطبيعة البشرية . ترى من يستطيع أن يكتب كلمة كهذه إن لم يكن قد خبر أحوال الناس ، وتقدم ثمن كلّ حرفٍ من حروفها نقطة من أثمن دماء قلبهِ :« كلماقدرتُ على ان أقوم بخدمة طلبها مني صديقٌ اسفت على خسارتهِ وعددتهُ عدوّاً جديداً » (٧) فلا عجب من ان هـذا الذي ينفذُ بنظرهِ الى أقاصي الوجدان طائفاً بين الغاز الميل والنفور يتمكنُ من لمس تفتت المرائر وإحصاء نبضات القلوب . وأيُّ حدس

(٦) تحرير المرأة (٧) « كلمات قاسم امين »

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

متيقظ مصيب في هذا البيان : « يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود »(٨)

واذا حاولتُ اجمال شخصيتهِ ووضع عنوان لها ما وجدتُ أفضل من سطورهِ الآتية :

« يظهر لي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي فاكثر الناس استعداداً للرقي هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيماً وتهتز اعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر اثرها فيهم بكثرة وشدة اولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون . اولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الاول مخاطرين بانفسهم يتنافسون فيما بينهم بمصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي اليه اسرارها فيصير شاعراً بليغاً او ولياً طاهراً او فيلسوفاً حكيماً او نبياً كريماً » (٩)

أو قاسماً أميناً . . .

لاني اظن على ما أرى من كتاباتهِ وصورتهِ الموضوعة في صدر « كلمات » ، انهُ ان لم يكن مزاجه عصبياً بحتاً ففيهِ شيء كثير من المزاج العصبي

***

كل هذه العناصر النفسية تجمَّعت فكان أغلبها عنصر القضاء . هو يلاحظ الاشياء ويراقبُ الحوادث مدققاً محصكاً

(٨و٩) « كلمات قاسم امين »

Google PRINCETON UNIVERSITY

ويحكم بفطرتهِ لها أو عليها ، وجاءت ممارسةُ القانون فزادته تلك الملكة ظهوراً . هو قاضٍ في جميع كتاباتهِ يجلسُ على منصة العدل غير ملتفتٍ كالخطيب ، الى انهُ أعلى مكاناً من الجالسين وانهُ يجبُ أن يرفع صوتهُ ليسمع السامعون. بل يجلس جلوساً طبيعياً لانَّ تلك المنصة مكانهُ ، ويتكلم بلهجةٍ بسيطة. يرى الاشياء حولهُ فيدوّنها ويقول : « اعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس » (٩) . ويسمع الاقوال فيسجلّها ، وهو الخبير بما فيها من رسم نفسية جمهور كبير من الناس ، وبما تقيدهُ على قائلها من ونيً فكريٍّ واستسلام ذليل: « سئل ح. بك : — مارأيك في كتاب تحرير المرأة ؟ فأجاب رديء !! — هل قرأتهُ؟ — لا — اما يجب ان تتطلع عليهِ قبل ان تحكم برداءتهِ ؟ — ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيي » (١٠)

واذا اهتم بموضوع ما اجرى فيهِ تحقيقاً يتناولُ جميع فروعهِ العمرانية والسيكولوجية والعلمية والوراثية والعائلية والوسطية ، فيجاهر بما يراهُ حقاً وقد لا يفهمهُ الآخرون ، ولا يخشى لوماً بتسمية العيوب والامراض باسمائها . يجاهر

(٩و١٠) « كلمات قاسم امين »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

غير منتبه للصواعق المنقضة عليهِ ممن لا يحسنون الاَّ مضغ كلمات تلقنوها يوماً فتجمدت معانيها في افكارهم وفاخروا باحتكار الحقيقة . انهُ يبصر اللفائف البالية الفاسدة على قروح قديمة فيمدُّ اليها يدهُ الجريئة ، وبينا العليلُ يغلظ القول محتجا باسم الدين والامة والشرف والعائلة ينزع هو تلك الاربطة هادىء الجأش، ويحللُ الجراثيم الخبيثة الراكدة عليها فيحصيها واحداً فواحداً . انَّ نظرة المحب تلمع في عين هذا الآسي . ولا يروعهُ ضجيجُ الساخطين ، بل يصمتُ عالماً بان التمرد أولُ أدوار الشفاء واذا تكلم قال بسذاجة :

نحن نعلم ان رجلاً يعيش في عالم الخيال يكتب في مكتبه على ورقة ان ليس على النساء الا ان يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك على الورق لان الورق يحتمل كل شيء(١١)

وكما ان الطبيب منهُ ودود كذلك القاضي مفكّر . هذا يصغي الى أقوال الشهود ويجمع حيثيات حكمهِ في حين ان ذاك يغوص في نفس المتهم ويقلب صفحات حياتهِ حتى يصل الى كلمة الاستهلال ، حتى يصل الى أمهِ . نعم أمهُ كيف كانت وكيف ربّت هذا المسكين ، وعلى أيّ وجه تربت هي قبل أن

(١١) « المرأة الجديدة »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

تلتقي بالذي صار فيما بعد أباً له ؛ ويتسلسل بحثهُ الى نساء آخريات ، والى جميع النساء ، فيرى حالتهن كما هي ، ويعذر الذي يناقضهُ في الرأي لانهُ لم يرَ ما رأى هو . فلا يجد ذاك صعوبةً في أن يحكم على المرأة بالانزواء في المنزل . وانما :

« يجد الصعوبة رجل اعتاد ان يحلل النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع . فانه اذا اراد مثلاً ان يحصل لنفسه رأياً في ما هي حقوق النساء التي نحن بصددها يجب عليه اولاً ان يسوق نظره الى الوقائع التي تمر امامه . اعني ان يطبق نظريته على الواقع ويتصورها في ذهنه منفذةً ومعمولاً بها في قرية ثم في مدينة ثم في اقليم وتتمثل امامه النساء في جميع اعمارهن واحوالهن وطبقاتهن فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وارامل . ويراهن في البيت وفي المدرسة وفي الغيط وفي الدكان وفي الاماكن الصناعية . ويقف على سلوكهن مع ازواجهن واولادهن والاجانب . ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا في بلادهن وكيف انهن يستعملن حقوقهن والنتائج التي ترتبت على هذا الاستعمال . ويقف على حالة المرأة في الازمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها » « فاذا توفر ذلك كله لم يتيسر له ان يحكم في المسألة حكماً قاطعاً . لانه يعلم ان رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها الا تقريبية . لذلك تراهُ دائماً على طريق البحث . لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضعه قاعدةً لعمل موقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل » (١٢)

لا يستطيع المرء أن يكون « قاضياً » عادلاً اكثر مما يظهرهُ قاسم أمين في هذه الفقرة . وانك لتجد هذه النزاهة والامانة والانصاف في كل ما كتب . لذلك هو يخفي العواطف

(١٢) المراة الجديدة

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

وينساها ما استطاع لانها ، كما يقولون ، تحول بين الفكر والعدل. ويظلُّ متكلماً بعقلهِ ، منادياً بالهدوء والرزانةوالسير على القواعد العلمية والانتفاع بالمشاهدات الاجتماعية ،ووجوب ضبط الانفعالات على الدوام. وعلى رغم ذلك فان نفَسهُ لا يفتر أبداً حتى اذا وصل الى فكرة لمست من قلبهِ مكاناً حساساً أرسل كلمات تشبه في مؤاساتها لمسة التدليل والتحبب على جبهة رضيع عزيز :

« أليس من الغريب ان لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة ابداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار ان تصور ان امهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة انفسهن ؟ايليق ان لا تثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسيء الظن بهن الى هذا الحدّ ؟ » (١٣)

وفي وسط كل هذه الابحاث الجدّية الخالي معظمها من التأثر والشعور يشعر القارىء بان قلب الرجل ليس بعيداً . ان قاسماً أحبَّ المرأة حباً جمًّا. وقد خطَّ لها رسماً يشرّفها في هذه الالفاظ الوجيزة :« كلما أردت أن اتخيلُ السعادة تمثلت امامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » (١٤). امرأة يجد فيها :

« الطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن

١٣ و١٤ تحرير المرأة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

التدبير والحذق في العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية » (١٥)

هذا هو مثلهُ النسائي الاعلى ، وبهذا المثل القاطن جوارحهُ يسير في سبيل الحياة مراقباً المرأة المصرية في خبرته القانونية ، وفي العائلة والاجتماع والامة جميعاً. فماذا يجد؟ يجد ما يدفعهُ الى كتابة كلّ ما كتب في سبيل اصلاحها يجد ما يجعله يقول في التمهيد لكتاب « تحرير المرأة » .

« اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة واخذت بمجامع خواطري .ولا اريد ان اذكر شيئاً منها لعلمي انها ما تركت ذهناً حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه . فان مثار هذه الحوادث جميعها شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها »

ويرى يوماً فتاةً صغيرةً يعجبهُ منها الذكاء والجمالُ فيشير على والدها بتعليمها ويجيب هذا بانها تتعلم ادارة المنزل ، وهذا يكفي . فيشفق قاسم على هذا الصلف والجهل وينطلقُ مفسراً

« يعني هذا الاب العنيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئا من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما اشبه ذلك من المعارف التي لا انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني اقول ولا اخشى نكيراً انه مخطىء في توهمه ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من

(١٥) تحرير المرأة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الـكفاءة مايؤهلها الى ادارة منزلها . فني رأيي ان المرأة لا يمكن ان تدبر منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية » . « والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعا يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمصروف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليـه . فتحلو له الاقامة فيـه ويلذّ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضي اوقاته عنـد الجيران او في المحلات العمومية . وعليها — وهو اول الواجبات واهمها — تربية الاولاد جسماً وعقلاً وادباً » . « ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفولته الى سن التمييز الا بين النساء » . « والام الجاهلة ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لانها لا تعرفها » . « قد صار من المقرر عندنا ان الامهات لا يفلحن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الخطة ورداءة السيرة ان يقال فلان تربية امرأة » (١٦)

بل هو يذهب الى أبعد من أن يحصر وظيفة الزوجة في ادارة المنزل وتربية الاطفال . هو يريد زوجةً تقاسمهُ أفراحهُ وآلامهُ وكلامهُ وسكوتهُ . يريد منها أُختاً لروحهِ فيشكو ويقول ان الرجل أحياناً — ولست أدري هل كلُّ رجل كذلك : —

يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت في اوقات ويتكلم في اخرى ويضحك في غيرها» . «له افكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه واحساس يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه

(١٦) « تحرير المراة »

Google PRINCETON UNIVERSITY

انساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه » . « فاذا كانت امرأته جاهلة كتم افراحه واحزانه عنها ولا يلبث ان يرى نفسه في عالم وامرأته في عالم آخر . ومن ثم تبتدىء عيشة لا اظن ان الجحيم اشد نكالاً منها . عيشة يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة » . «والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل او قصير أبيض او اسود . اما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهارة ذمته ورقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده في الوجود وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى ان يكون محترماً محبوباً ممدوحاً في امته — فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها . وعلى هذا اول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن انها تحبه ؟ » . «أبغض الرجال عندها من يقضي اوقاته في الاشتغال في مكتبه . كلما راته جالساً منحني الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع اذا اراد الجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم » . « ومن البديهي ان الرجل الذي يكون هذا حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل . لان الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه(١٧)

هذه حالة المرأة فكيف يصلحها ويجعلها نافعة لنفسها ولغيرها ؟ ما الذي جعل الرجل أفضل اليوم منهُ البارحة؟ وعلى أي شيءٍ تنتصبُ أركانُ العمرانُ؟ أمرٌ أصبح شغلهُ الشاغل حمل قلمهُ ونظر اليهِ لكن ينظرُ الى الامل الوحيد في الدنيا وجرى بهِ على القرطاس المطيع ، ذلك القلم الذي قال فيهِ خليل مطران :

---

(١٧) المرأة الجديدة

Google PRINCETON UNIVERSITY

يدكُّ القبيح ويبني المليح رجوعاً إلى سنَّة الراسمِ
يشعشع نوراً إذا ما انبرى يسيل بماء الدجى الفاحمِ

* * *

باحثة البادية تصاحح كامرأة ، وقيل ان المرأة اكثر تشبثاً بالماضي . وقاسم أمين يُصلح كرجل — اي يرسل نظرهُ ابداً الى الامام . هي تسيرُ بتحفظ بين تشعب الافكار الجديدة والآراء المستحدثة ، وكلما خطت خطوة التفتت الى الوراء لتتثبَّت من انها تابعة السبيل الذي يربطُ الامس بالغد . وكلما جاءَت بتبديل في النصوص الاصطلاحية حاولت سبكه في قالب الاعتدال مع مراعاة العادات المألوفة ما أمكن . هي كثيرة التحذُّر في إصلاحها ، عمليـة متواضعة في مطالبها ، لا تبتعد قتراً واحداً عن حدود يثبتها وان حامت فوقها بما أُوتيت من شجاعة وذكاء . الاَّ انك حينما تسمعها صارخةً كثيراً ما تظنّ انها تفعلُ لتؤكد لكَ انها غير خائفة ، ولك أن تقدّر كذلك انها تصرخ لتسمع صوتاً إنسياً — وإن كان صوتها — يبعد عنها الرعبَ والوجلَ في وحدتها الفكرية . أما قاسم فلا يصرخ ولا يخاف ولا يرتعش . في فكرهِ مقدار الكمال الكافي

لاختطاط النظريات ، وفي اصالة رأيهِ وحزمهِ من الجدارة ما يحوّل النظريات الى ما يطابق الواقع، بل هي الواقع بعينهِ .وله جناحان يدفعان بهِ الى نقطة ادراكية يشرفُ منها على الماضي والحاضر والمستقبل وعلى جميع البيئات والامم والتواريخ . فيضع هناك كرسي القضاء — كرسيهُ — ويجلس متأملاً مقابلاً بين شعبٍ وشعب وعصرٍ وعصر ، باحثاً في كل آنٍ وزمانٍ عن تلك السعادة الحلال المتمثلة لهُ في صورة امرأة « جائزة ً لجمال المرأة وعقل الرجل » . وبين زرافات النساء المارة أمامهُ تستوقف خاطرهُ امرأةُ بلاده ، امهُ واختهُ وزوجتهُ وابنتهُ أولئك اللاتي أوجدتهن الطبيعة صديقاتٍ لحزنهِ وأنسهِ . وكأني بهِ يناديهن فيلبين النداء بطيئات متسكعات تعبات ، ويدنين فيرى عليهن غشاءً يمنع عنهن نور الشمس ونور الحياة: الحجاب !..

لهذه الكلمة دويٌّ مرعب في نفسهِ كما لدويّ ابواب السجون في مسمع من حُكم عليهِ بالسجن المؤبد ظلماً.فيمسكُ بهذا الحجاب ويقلبُ معانيهُ من جميع الوجوه ، ويدرسُ تاريخ نشأتهِ وتأثيرهِ في الشعوب التي اقتبستهُ ثم نبذتهُ ،ويحلل

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

اسبابهُ ويتبصر في نتائجهِ ، ويراجع أقوال الكتاب العزيز والحديث الشريف وعادات القوم ، فيقرّر بعد البحث والتعليل انهُ ليس اسلامي الاصل ما دام انهُ استعمل عند أمم سبقت الاسلام ، وانهُ ليس واجباً على المرأة المسلمة ما دام ان ليس في الشرع نص صريح يأمر بهِ . هو في نظرهِ اثر من آثار الهمجية الاولى ، بل هو « اقصى وافظع اشكال الاستعباد . ذلك لان الرجال في عصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء اما بالشراء واما بالاختطاف » ويتابع قائلاً :

« فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج ان تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحريه حالة اعتبرت فيها المرأة انها انسان لكنه ناقص غير تام . اكبر على الرجل ان يعتبر المراة التي كانت ملكاً له بالامس مساوية له اليوم فحسن لديه ان يضعها في مرتبة اقل منه في الخليقة . وزعم ان الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات » وقال انه « يلزم ان تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وان تنقطع عن الرجال وتحتجب بان تقصر في بيتها وتستر وجهها اذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها او تخدعهم بحيلها وانها ليست اهلاً للرقي العقلي والادبي فيلزم ان تعيش جاهلة » . « وذلك هو السر في ضرب الحجاب وعلة بقائه الى الآن » . « ولما كانت تهمة المراة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا ان نبحث في طبيعة المرأة لنعلم ان كانت كما يقال احط من طبيعة الرجل ام لا » . « ولا ريب ان المراة اليوم احط من الرجل في الجملة ولكن علينا ان ننظر هل هذه الحال طبيعية لها او ناشئة عن طرق تربيتها » . « لان الرجال اشتغلوا اجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوّت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فانهن حرمن من كل تربية فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي . لا نريد بهذا التساوي

Google PRINCETON UNIVERSITY

ان كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه ولكنا نريد انمجموع قواها وملكاتها تكافأ مجموع قواه وملكاته وان كان يوجد خلاف كبير بينهما لانمجرد الخلاف لايوجب نقص احد المتخالفين عن الآخر » . « وبعبارة اخرى يوجد مذهبان احدهما ينصح للناس بالتمسك بالحجاب والثاني يشير عليهم بابطاله » . « فايّ المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا ؟ أما الحجاب فضررهانه يحرم المراة منحريتها الفطرية ويمنعها من استكمال تربيتها. ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة .ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والادبية . ولا يأتي معه وجود امهات قادرات على تربية اولادهن . وبه تكون الامة كانسان اصيب بالشلل في احد شقيه » . « وأما الحرية فمزاياها هي ازالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها . وضررها الوحيد انها في مبدأها تؤدي الى سوء الاستعمال ولكن مع مرور الزمن تستمد المراة الى ان تعرف مسؤليتها وتتحمل تبعة اعمالها وتتعوّد على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية التي هي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح لا خوفاً من عقاب ولا طمعا في مكافأة ولا لوجود حائل ليس في الامكان ازالته بل لانه قبيح من نفسه » . وبالجملة فان « المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجوداً تاماً الا اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها الى اقصى درجة يمكنها ان تبلغها . والحجاب على ما الفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الامة وتقدمها »(١٨)

كم يخطىء من لم يعرف من قاسم امين سوى انهُ ينادي برفع الحجاب ، وهو الامر الذي اشتهر بهِ : وانهُ يريد للمرأة الحرية المطلقة بلا قيد ولا شرط ، وهو ما يقولهُ الذين لم يقرأوا كتبهُ : انهُ من أكثر من اعرفُ محافظةً على انثوية المرأة ومنزلتها في العائلة والامة — وإن انصفها في غير هذا الدور.

(١٨) « تحرير المرأة »

Google PRINCETON UNIVERSITY

قاسم امين وباحثة البادية

(٩)

المقابلة بينهما (تابع وخاتمة)

قال المقتطف في وصفهِ حفلة التأبين لقاسم انهُ ورد في خطاب السيد رشيد رضا الكلمات الآتية : « اخبرني قاسم امين انهُ كان يوماً اطّلع على ما كتبهُ الدوق دراكور غافلاً عن حال النساء بمصر فالمهُ ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد (١) بوجدان الغيرة وبعد ان شفى غيظهُ وأرضى غيرتهُ بذلك عاد الى نفسهِ وفكّر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسهِ فبعثهُ ذلك الى درس هذه المسألة » « وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف كتاب « تحرير المرأة »

والواقع ان من طالع الردّ على الدوق دراكور وعلى كتاب

(١) Les Egyptiens, Réponse à M. le duc d'Harcourt, par Kassem Amin.

Google
PRINCETON UNIVERSITY

« تحرير المرأة » رأى ان فكر قاسم ارتقى واتسع وتسامى في الفترةالتي مرّت بينهما . وقد عزّز هذا الكتاب بكتاب « المرأة الجديدة » ردّاً على معارضيهِ فجاءَ كالكتاب الاول، بل أقوى حجة وأوضح دليلاً . فقسمهُ الى حرية المرأة ، والواجب على المرأة لنفسها ، والواجب عليها لعائلتها ، ثم التربية والحجاب ، وخاتمة ترسم صورة الافكار في تلك الايام بالنسبة الى المرأة : أما الحرية فلا بد من منحها اياها لانهُ لا يظن « ان عقلاً يقبل أن تعتبر المرأة انساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق اذا قتلت، ثم تعتبر انها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة العادية » [٢] فقال:

« على ان ما قيل ويقال من ان حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا اصل له تبطله التجارب وينبذه العقل اذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على ان حرية النساء تزيد في ملكاتهن الادبية وتبعث فيهن احساس الاحترام لانفسهن وتحمل الرجال على احترامهن » (٣)

ويرى واجب المرأة لنفسها في ترتيب أعمال الانسان المنقسمة الى ثلاثة انواع : الاعمال التي يحفظ بها حياتهُ ، والاعمال التي تفيد عائلتهُ ، والاعمال التي تفيد المجتمع ، مقرّراً

---

٢ و٣ « المرأة الجديدة »

Google PRINCETON UNIVERSITY

ان هــذه الاعمال من خصائص الرجال والنساء على السواء . ولـكنهُ يضربُ صفحاً عن نوع الاعمال الثالث لا لقصور المرأة وعجزها الظاهر الآن فحسبُ بل لانهُ يرى « اننا لا نزال الى الآن في احتياج كبير الى رجال يحسنون القيام بالاعمال العمومية » . يُسلّم بان الفطرة أعدّت المرأة الى المعيشة العائلية ويردّد ان « احسن خدمة تؤديها المرأة الى الهيئة الاجتماعية هي ان تـكون زوجة ووالدة » . الاَّ ان هذا لا ينسيه الواقع وهو انَّ كثيرات ليس لهن عائل ولا واجبات عائليـة ، وان عدد هؤلاء اثنان في المائة من مجموع النساء المصريات « فهل من مصلحةٍ للرجال اوعموم الهيئة الاجتماعية من ان يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟ » ثم يتبسَّط في الشرح قائلاً :

« يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعـدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق او بموت الزوج ومن النسـاء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة الى كسب عيشها بسبب شدة فقره او عجزه او كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن اولاد . كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن » . « يقول المعترضون انهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة اعمال الرجال والاختلاط بهم كما انهم لا يمنعون المرأة من التعليم اذا كان لازماً لكسب عيشها لان الضرورات تبيح المحظورات » . » ولا يخفى ان كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات » . ولما كان الاطلاع على الغيب امراً غير ميسور للانسان

Google PRINCETON UNIVERSITY

وجب ان تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل ان تقع لها » . فاذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيراً وتفيد عائلتها وان لم تتزوج او تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الاسباب الكثيرة الوقوع امكنها ان تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها » .
« يجب ان تربى المرأة على ان تكون لنفسها لا لان تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها ان تقترن به مدة حياتها . يجب ان تربى المرأة على ان تدخل في المجتمع وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء . يجب ان تربى المرأة على ان تجد اسباب سعادتها وشقاءها في نفسها لا في غيرها » . « وليس معنى ذلك الزام كل امرأة بالاشتغال باعمال الرجال وانما معناه انه يجب ان تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة اليه »(٤)

هذه النقطة من الموضوع ينساها كثير ممن يتعرضون لمعالجة تهذيب المرأة فيجزمون بان لا وجود للمرأة الا بجانب الرجل. فكيف يحيا ذلك العدد الكبير من النساء الذي لا يعيش للرجل؟ لقد انصفهن قاسم. ثم تحوّل الى الوظيفة المباركة التي سمّاها واجب المرأة لعائلتها ، مفصلاً كيف ان الناس عادةً يسيئون فهم تلك الوظيفة إذ يجعلونها مقصورة على الامومة الجسدية ، ناسين ان المرأة الحرة هي التي يكون لها نفوذ عظيم صالح في أسرتها ، وان نفوذ الجاهلة المستعبدة لا يتعدّى ما يكون « لرئيسة الخدم في البيت » وكم كان هذا النفوذ سيء الأثر جالب الهم والغم : يلومُ من كانت هذه حالتها

(٤) « المرأة الجديدة »

Google PRINCETON UNIVERSITY

مشفقاً ناسباً انحطاطها الى من هو السيد ، مُرجعاً امرهُ — كما فعلت الباحثة — الى أصله الحقيقي وهو اهمال الرجل وأنانيتهُ وبطشهُ . وما تتعلمهُ البناتُ الآن ليس بكافٍ في رأيه لان :

« اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال انها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه بواسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهي اليها . وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء » (٥)

هو يريد شيئاً أفضل وأبقى من هذه اللوامع الظاهرة التي يُعنى الاهل بطلاء شخصية بناتهم بها من العزف على آلات الطرب ، والغناء ، ومبادئ الرسم ، والكلام بلغةٍ أو بلغات لا يحسنَّ بها غير ثرثرة الاجتماعات وقراءة الروايات ، وتظارف الدمى تصنعاً بالصوت والحركة . يريد للمرأة شخصية قويةً مستقلة ، ولا يظنها قادرة على القيام بوظيفتها في العائلة والامة الا اذا حازت جانباً كبيراً من المعرفة وهي الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها « شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقي الكرامة والشرف » . وان لم تكن الام

(٥) « تحرير المرأة »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

راقية بمعرفتها وفكرها فكيف تستطيع تربية ابنها على مثل ذلك ؟ قال :

« غاب عنا ان الرجل انما يكون كما هيأته والدته في صغره » . « ويظن الجمهور الاعظم من الناس ان التربية من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم ان لا شيء من الشؤون الانسانية مهما عظم يحتاج الى علم أوسع ولا نظر ادق ولا عناء اشق مما تحتاج اليه التربية . اما من جهة العلم فلانها تحتاج الى جميع العلوم التي توصل الى معرفة قوانين نمو الانسان الجسماني والروحاني . واما من جهة المشقة والعناء فلان تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته الى بلوغه سن الرشد يحتاج الى صبر ومثابرة في العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج اليها عمل آخر . لا يؤخذ من ذلك اني اذهب الى ان كل ام يجب عليها ان تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن ان جميع الامهات يجب عليهن ان يعرفن كلياتها وكلما زاد علم الواحدة منهن باصول العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها » . « وليس تأثير المرأة في العائلة قاصراً على تربية الاطفال بل المشاهد بالعيان ان المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح في اعماله واعدت له اسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لاشغاله » . « وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته في حال اليأس والقنوط . وكم رجل طلب الجد ومعالي الامور طمعاً في ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب » (٦)

(واي مصلحة لرجل اعظم من ان يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليل والنهار في الاقامة والسفر في الصحة والمرض في السراء والضراء رفيقة ذات عقل وادب عارفة بحاجات الحياة كلها تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل اولادها تدبر ثروته وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه وتروج اعماله وتذكره بواجباته وتنبهه الى حقوقه وتعرف انها باجتهادها تجد في منفعتها كما تجد في منفعة زوجها واولادها . وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصداقتها امام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل اليها بفاضل الاعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الاخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ اوقاته

(٦) « المرأة الجديدة »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وتذيب همومه ؟ هذه الحياة التي لا يشعر الرجال عندنا بشيء منها هي من اعظم الينابيع للاعمال العظيمة) (٧)

يا لبلاغتهِ ساعة يصفُ المرأة المثلى : انهُ يتوقُ الى ان يلقى فيها زوجةً وأُماً وأختاً وصديقةً وحبيبةً والهةً ومهذبةً جميعاً . وهو جائعٌ عطشٌ الى كل ما تكنّهُ ذاتها من رحمة وحنو وحزم وحبّ شامل. كم كان أميناً لخيالها في ذهنهِ ساعة قال انهُ كلما حاول انْ يتصوّر السعادة رآها امرأةً «حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل» :

***

في كتاب « تحرير المرأة » الذي هزَّ مصر يومئذٍ هزة عنيفة لم يطلب رفع الحجاب دفعةً واحدة ، بل هنالك اقوال صريحة تدلُّ على انهُ ليس أقل من الباحثة اعتدالاً . مثلاً :

« اني لا اقصد رفع الحجاب الآن دفعةً واحدةً والنساء على ما هن عليه اليوم ». « وانما الذي اميل اليه هو اعداد نفوس البنات في زمن الصبا الى هذا التغيير . فيعودن بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بان العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم . ثم يعودن على معاملة الرجال من اقارب واجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية واصول الادب تحت ملاحظة اوليائهن »

بل يعتقد : « انه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن — والنفوس على ما هي عليه — لعمت البلوى وزاد الفساد انتشاراً . »

---

(٧) « المرأة الجديدة »

Digitized by Google   Original from PRINCETON UNIVERSITY

« وليس الدواء في تغليظ الحجاب لانه مستحيل . بل من متممات شؤوننا ان نحافظ على هذه الحالة « حالة الاختلاط بالاجانب وقبول الصالح من عاداتهم » متقين المضار التي نشأت عنها . والطريقة الناجعة والحجاب المنيع هي التربية الصالحة »

« والذي اراه في هذا الموضوع هو ان الفريقين قد غلوا في اباحة التكشف للنساء وقد تغالينا نحن في طلب التحجب » . « وبين هذين الطرفين وسط — هو الحجاب الشرعي وهو الذي ادعو اليه »

يمكننا اليوم ان نتخيل بسهولةٍ بأيّ حدةٍ وغضب قوبلت هذه الدعوة الجسورة ، وكيف هبّ البعض يدحضونها ويرمون صاحبها بالكفر . أما هو فقرأ تلك الانتقادات بتمعّنٍ وردّ عليها بحصافة في كتاب « المرأة الجديدة » حيث قال :

« وعلى اننا بعد اندققنا النظر في جميع ما قيل او كتب في هذا الشأن لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه الا وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليه » . « لو لم يكن في الحجاب من عيب الا انه مناف للحرية الانسانيـة وانه صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع أن تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل . وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل — لو لم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكفى وحده في مقته وفي ان ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها »

ولعلّ هذا الرجل سليل الامير الكردي تسمى أبداً في مجاري دمهِ ومطاوي روحهِ تذكاراتُ اغاراتِ جدوده في

Google PRINCETON UNIVERSITY

جبالهم العصية وكل ما استنشقهُ آباءُ آبائهِ من هواء نقي وتمتعوا بهِ من حرية ، فما ذكر الحجاب والضغط الا هتف :

« أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له امامها والسماء فوقها والنجوم تلعب بيمرها وارواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب في فتح كنوز اسرارها ؟ »

وللمعترضين بان الاطلاق يجلب الضرر يجيب : « اما الاطلاق في نفسه فلا يمكن ان يكون ضاراً ابداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة. لان التربية الصحيحة تكوّن افراداً اقوياء بانفسهم يعتمدون على انفسهم ويسيرون بانفسهم فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير في كل اموره . فالاستقلال في النساء كالاستقلال في الرجال يرفع الانفس من الدنايا ويبعدها عن الخسائس . لذلك يجب ان يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء »

بيد انهُ أدرك ان اصلاح المرأة لا يتمُّ بالتربيـة وحدها ما لم يتوفر لها وسطٌ يكفل حفظ ما تكسبهُ من فائدةٍ معنوية ، ولا بدَّ لذلك من كمال نظام العائلة القائم على مسائل مهمة ثلاثة ، وهي: الزواج والطلاق وتعدُّد الزوجات. وقد جعل اساساً لكلامه الآية الحكيمة القائلة : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

أين « المودة والرحمة » ؟ يسائل قاسم نفسهُ . أمن دواعي

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

المودّة ان يرتبط الزوجان برباط الزواج قبل ان يتعارفا وقبل ان يميل كلٌّ منهما للآخر؟ أمن دواعي المودّة ان لا يتفاهم العروسان الا بعقول الآباء والجيران والرسل وان لا يعلم الواحدُ من احوال الآخر الاّ ما يسمعهُ نقلاً عن ناقلٍ مغرض او متهوّس؟ وأين تلك «الرحمة» من رجل يتزوّج من النساء ما شاء ومتى شاء؟ وأين الرحمة في قلوبهن وكلٌّ منهن شاعرةٌ بأنها مظلومة وان زوجها مستبدٌّ طاغ؟ أين الرحمة في قلب رجل يؤذي امرأة في أرقّ عواطفها واعزّ ما عندها، ويسحقُ حياتها وسعادتها تحت قدم اهوائه؟

يقول بضرورة التلاؤم في الاذواق والميول، وانهُ لا غنى عن ان يرضى كلٌّ بهيئة صاحبه فلا يشعر بذلك «النفور» الذي يبعد بين بعض الاشخاص لمجرد النظر، ويقول بوجوب ائتلاف الملكات والعقول. ولا يتأتّى كلٌّ ذلك الاّ اذا خالط كلٌّ منهما الآخر ولو قليلاً قبل الخطبة، وبهذا الاجتماع عود الى «أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وهو اصلاح يقضي به العقل السليم». «لان رجال العصر الجديد لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم

لا خادمة تُستعمل في كل شيء ». « وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجتهِ فانهُ أمر يهمها اكثر مما يهمّ ذوي قرابتها »

أما تعدُّد الزوجات فقد قاومهُ بشدة مستعيناً في ختام « المرأة الجديدة » بالتقرير الذي وضعهُ يومئذٍ فضيلة خالد الذكر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بشأن اصلاح المحاكم الشرعية . تعدُّد الزوجات عندهُ عادة « بربرية » كانت منتشرةً عند ظهور الاسلام ولا محلّ لها في هذا العصر الذي تصعد فيهِ الشعوب درجة الرقي ، وان الفرد اذا ارتقى الى حدّ عرف عندهُ كرامتهُ وكرامة الزوجة والاولاد مال الى الاكتفاء بامرأة واحدة . لانّ :

« في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة » . « وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة اخرى اذ لا يخلو حالها من احد امرين اما ان تكون مخلصة في محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها . واما ان لا تكون كذلك وهي راضية بعشرته بسبب من الاسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في اهله فاذا ارتبط باخرى سواها قاست من الالم ما يبعثه احساسها بان ذلك المقام الذي كان باقياً لها قد انهدم ولم يعد لها امل في بقاء شيء من كرامتها عنده » . « ولا ريب في ان شقاء المرأة بهذه الحال يكون له اثر شديد في نفس الرجل المهذب حتى يشعر دائماً بانه هو السبب في هذا الشقاء . ثم ان الاولاد من امهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق » . « مثلهم كمثل الممالك الاوربا وية تظهر بحالة السلم وهي تأخذ اهبتها للحرب حتى اذا

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فزق بعضهم بعضاً كما نشاهده في اغلب العائلات » . « فلا ريبة بعد هذا ان خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ذلك ادنى ان يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته واولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة واقرب الى الوصول الى سعادته » (٨)

ولا يجيز التزوّج بأكثر من واحدة الاّ في حالة الضرورة المطلقة . ومن ثم يصل الى الطلاق فيقولُ بانهُ يفضل ان يكون الزواج عقدة لا تنحل الاّ بالموت « ولكن مما يجب مراعاتهُ ان الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرتهُ فوق طاقة البشر ». فيبيحُ الطلاق حينئذ لانهُ من المضرّات التي لا يُستغنى عنها ومنافعهُ تزيد اضرارهُ على ما يرى. غير انهُ يقبحهُ كما هو شائع مبنياً على اللفظ المستعمل بسهولة العادة، ولا يقبلُ بهِ الاّ مع النية الحقيقية والارادة الواضحة برفع قيد الزواج ووقوع الانفصال . وقد سنّ للطلاق نظاماً قائلاً ان الحكومة اذا أرادت ان تفعل خيراً للامة فعليها ان تعمل بهِ . وهو :

(المادة الاولى) كل زوج يريد ان يطلق زوجته فعليه ان يحضر امام القاضي الشرعي او المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته

(المادة الثانية) يجب على القاضي او المأذون ان يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على ان الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعة الامر الذي سيقدم عليه ويأمره ان يتروّى مدة اسبوع

(٨) « تحرير المرأة »

Google PRINCETON UNIVERSITY

(المادة الثالثة) اذا اصرّ الزوج بعد مضي الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي او المأذون ان يبعث حكماً من اهل الزوج وحكماً من اهل الزوجة او عدلين من الاجانب ان لم يكن لهما اقارب ليصلحا بينهما

(المادة الرابعة) اذا لم ينجح الحكمان في الاصلاح بين الزوجين فعليهما ان يقدما تقريراً للقاضي او المأذون وعند ذلك يأذن القاضي او المأذون للزوج بالطلاق

(المادة الخامسة) لا يصح الطلاق الاّ اذا وقع امام القاضي او المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الاّ بوثيقة رسمية

وليكون انصافهُ تاماً مستوفياً قال ان اعتبار المرأة لنفسها وحفظ كرامتها يقضيان بمنحها حق الطلاق ، كما للرجل ، وانهُ ليس من العدل ولا من الانسانية ان تُسلب واسطة التخلص من زوج شرير او من ذوي الجرائم ، الى غير ذلك ممّن لا يمكن لامرأةٍ سليمة الذوق والخلق ان ترضى بمساكنتهِ

معلوم ان هناك ضرباً من الزواج يدعى « زواج العصمة » بهِ تحفظُ المرأة عصمتها بيدها فتطلقُ عند ما تشاء دون ان تقدم سبباً للمحكمة . ويقال ان عدداً يذكر من اغنياء المصريين يحفظون عصمة بناتهم عند الزواج ، وان المرحومة البرنسس نازلى هانم كانت متزوجة على هذه الكيفية

***

ينجلي من كلّ ما سبق اذن ان باحثة البادية وقاسم امين متفقان في وجوب اصلاح المرأة وفتح ابواب التعليم امامها

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

وجعل التربية متوفرة لها ، وعلى أن هذه من خصائص المنزل . كذلك هما متفقان في وجوب الاجتماع والتعارف قبل الخطبة ، وفي حلّ مشاكل الطلاق وتعدُّد الزوجات . ولا يختلفان في مسألة الحجاب الاَّ قليلاً ، لان كلاًّ منهما يعترف بخطر إباحتهِ بلا استعداد ، وبضرورة تعويد البنات عليهِ في الصغر واعدادهن لهُ مسلّحات بالعلم الكافي والتربية المتينة . هذا في النقط الاساسية . اما من حيث التفاصيل فان كلاًّ لحق فطرتهُ واثبت نظرتهُ الخصوصية في الحياة

قضى قاسم امين سنة ١٩٠٨ وقضت الباحثة منذ عام وشهر وبعض شهر . فما هي نتيجة عملهما ، وما هو الاثر الذي تركاهُ في بيئتهما ؟ انهُ يصعب جدًّا تعيين هذا الاثر وحصر تلك النتيجة ، لانَّ عمل الفكر مكروب خير وضياءٌ يسري متوارياً في الاذهان والعواطف ، محتجباً عن انظار الناظر واحصاء الحاسب . اننا لا نستطيع أن نتصوَّر كيف تكون الحالة لو لم يجيئا ويكتبا . أما من جهة الباحثة فلو لم يكن غير حفلتي التأبين اللتين أقام أحداها الرجال لمرور الاربعين يوماً على وفاتها ، وعقد الاخرى النساء لمرور العام، لو لم يكن غير ما

Google PRINCETON UNIVERSITY

قيل في رثائها واذاعة فضلها مما لم يكن لامرأة قبلها في مصر الفتاة — لو لم يكن غير ذلك لكفى لتعيين مكانتها العالية. وسل الشبيبة التي كتب لها قاسم امين وهي طفلة تلعب ووضع كل آماله فيها، سلها عنهُ تجبك كم تقدرهُ والى أي درجات الاعزاز والاكبار يصلُ في نفسها

لقد شاع قبيل الحرب ان عدداً من الشبان المتعلمين اتفقوا فيما بينهم على تأليف جمعية لتحرير المرأة، حتى اذا بلغ عددهم الالف أطلقوا الحرية لنسائهم واخواتهم وامهاتهم وبناتهم وأباحوا لهن أن يخرجن سافرات. أليس ان قاسم امين أوجد هذه الفكرة بكتاب «تحرير المرأة» حيث اقترح تأسيس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناتهِ على الطريقة الجديدة وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين، ويكون عمل الجمعية في امرين: الاول التعاون على تربية البنات على القاعدة الحديثة. والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية

Google PRINCETON UNIVERSITY

وجعل التربية متوفرة لها ، وعلى أن هذه من خصائص المنزل . كذلك هما متفقان في وجوب الاجتماع والتعارف قبل الخطبة ، وفي حلّ مشاكل الطلاق وتعدُّد الزوجات . ولا يختلفان في مسألة الحجاب الاّ قليلاً ، لان كلاًّ منهما يعترف بخطر إباحته بلا استعداد ، وبضرورة تعويد البنات عليهِ في الصغر واعدادهن لهُ مسلّحات بالعلم الكافي والتربية المتينة . هذا في النقط الاساسية . اما من حيث التفاصيل فان كلاًّ لحق فطرتهُ واثبت نظرتهُ الخصوصية في الحياة

قضى قاسم امين سنة ١٩٠٨ وقضت الباحثة منذ عام وشهر وبعض شهر . فما هي نتيجة عملهما ، وما هو الاثر الذي تركاهُ في بيئتهما ؟ انهُ يصعب جدًّا تعيين هذا الاثر وحصر تلك النتيجة ، لانّ عمل الفكر مكروب خير وضياءٌ يسري متوارياً في الاذهان والعواطف ، محتجباً عن انظار الناظر واحصاء الحاسب . اننا لا نستطيع أن نتصوّر كيف تكون الحالة لو لم يجيئا ويكتبا . أما من جهة الباحثة فلو لم يكن غير حفلتي التأبين اللتين أقام أحداهما الرجال لمرور الاربعين يوماً على وفاتها ، وعقد الاخرى النساء لمرور العام ، لو لم يكن غير ما

Google PRINCETON UNIVERSITY

قيل في رثائها واذاعة فضلها مما لم يكن لامرأة قبلها في مصر الفتاة — لو لم يكن غير ذلك لكفى لتعيين مكانتها العالية. وسل الشبيبة التي كتب لها قاسم أمين وهي طفلة تلعب ووضع كل آماله فيها، سلها عنه تجبك كم تقدره والى أي درجات الاعزاز والاكبار يصل في نفسها

لقد شاع قبيل الحرب ان عدداً من الشبان المتعلمين اتفقوا فيما بينهم على تأليف جمعية لتحرير المرأة، حتى اذا بلغ عددهم الالف أطلقوا الحرية لنسائهم واخواتهم وامهاتهم وبناتهم وأباحوا لهن أن يخرجن سافرات. أليس ان قاسم امين أوجد هذه الفكرة بكتاب «تحرير المرأة» حيث اقترح تأسيس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة الجديدة وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين، ويكون عمل الجمعية في امرين: الاول التعاون على تربية البنات على القاعدة الحديثة. والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

واما الحكم في صلاحية ما ارتآهُ كلٌّ من هذين المصلحين الجليلين فهو كما قال حافظ في مرثاتهِ لقاسم امين :

الحكم للايام مرجعهُ في ما رأيت فنم ولا تسل
وكذا طهاة الرأي تتركهُ للدهر ينضجهُ على مهل

لينتبه الآن كلٌّ منهما في اكفانهِ متلفتاً كما يتلفت الزارعُ الى سهول زرع فيها حبات قلبهِ يريا ان البذور المودعة في صدر الارض نمت وترعرعت وصارت خضرةً سندسية تبشر بالحصاد الذهبي العتيد. يريا الشبيبة ناهضةً والمرأة مشاركةً الرجل في أفكارهِ وعواطفهِ. يريا ان فئة بدأت تفهم ما قالهُ تنسن من ان قضية المرأة هي قضية الرجل(٩) وان هذا وتلك عامودا العائلة فان مال احدهما وقصر واختل وضعهُ تداعى سقف الاسرة وانهار صرح الاجتماع القائم على دعائم العائلة. يريا نفوساً متيقظات وعقولاً تدركُ كرامة الافراد وكرامة الجماعات. نعم ان هذه فئة صغيرة من المجموع الكبير ولكنَّ نقطة النور ستظلّ آخذةً في الاتساع حتى تشمل القوم قليلاً

The woman's question is man's ; They rise or risk (٩)
Together, dwarfed or god-like, bond or free.
Tennyson.

Google PRINCETON UNIVERSITY

قليلاً . اذ ذاك تقدر مصرُ المفكرة قدر من فتح الطريق بكل ما لديهِ من وسيلة وقوة . اذا ذاك تشعر نحوهما بتلك العاطفة التي هي فوق الاعجاب والشكران ، وقد سماها كارليل « عبادة الابطال » فتطلقُ على كلٍّ اسم « بطل الاصلاح »

وعلى هذا فكلمتي الأخيرة كلمة أمل ونشيد ظفر . والحكم في مستقبل المرأة المصرية — وامرأة الشرق الأدنى على العموم، لأن مصر عظيمة الأثر في ابناء هذه الاقطار — يجبُ ان يستخرج من كتاب « تحرير المرأة » ، ذلك الحكم الذي اصدرهُ المؤلف ساعة وحيٍ ودوّنهُ في السطور الآتية :

« انهُ لا بد لحسن حال الأمة من ان تحسن حال المرأة . فاذا أرسل الناظر فكرهُ ليحيط باطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط بهِ من المسائل انجلت لهُ الحقيقة وتجلَّت لهُ بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابهُ الخيال الذي كان يظنهُ جسما . ويرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتلألأ في أنوار جمالها ظاهرةً مظهرها الفطري ولابسة حلة كمالها الثنائي : الجسم والعقل »

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

بين كاتبتين (١)

إلى باحثة البادية

ترنّمتُ باسمكِ قبل أن أعرفكِ ، واتّخذتُ ذكركِ عنواناً لنهضـةِ المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلكِ. غير أني عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيتُ عليها ساعاتٍ طويلات فيها خيـل لي اني اقلّب صفحات نفسك المفـكّرة المتوجّعة

ثلاث سـنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظـة بين دفّات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والاسـفار المتراكمة يوماً بعد يوم. لـكن سّرها ما زال مترقّباً يداً تلمسهُ ، مستعداً لمناجاة نفس تتلمّسهُ

سنوات ثلاث فيها مشت البشرية خطواتها المعدودات متعثّرةً بالعظام والجماجم ، منشـدةً أهازيج النصر الـكاذب

(١) هذه هي المراسلة التي سبقت التعارف وادت اليه . وقد نشرت يومئذ هذه المقالة في الجريدة والمحروسة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وتهاليل الفخر الباطل، وقواها الغالية تسيلُ على شفار السيوف، ودماء حياتها تجري انهاراً في سهول قد أخفت نجمها الجيل وثمراتها المتمّعة خوفاً من وحشية الأنسان

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد صدمات السياسة والاقتصاد والاطماع المتزايدة . فيها ارتفعت دويلاتٌ جادّةٌ مجتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها الضعيفة باهمالها وتهاونها . وقد جاش لذلك كل ما في صدر الاسلام من النخوة القديمة وبكت لهُ قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان

كل ذلك ومصر مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها . كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى . صخور التقاليد القديمة تدمي اقدامنا الجديدة، واشواك الاصطلاحات تجرحُ أيدينا الممتدة للمس اشياء نظنُّها موصلةً إلى حياة نُريدُها عظيمةً . والسراب الجميل اللامع في حدود المستقبل غير المحدود يستدعينا آمراً كأنهُ نظرة عينٍ فتّانة، فنجري في الصحراء ولا ندري إلى أين المصير !

سنوات ثلاث مررن على يوم فيهِ ارتفع صوتكِ مرشداً .

Digitized by Google
Original from PRINCETON UNIVERSITY

عائلتنا لا تزال على ما كانت عليهِ ، وافكارنا لم تتغيَّر إلاّ قليلاً ، وعواطفنا ما برحت حائرةً بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعي اننا نعلم وما نجهل اننا لا نعلم : غير أن الاصداء الخفيَّة ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم

بالأمس لمستُ نفسكِ وقرأتُ أفكاركِ فعثرتُ على جراح بليغةٍ وددتُ تقبيلها بشفتي روحي ، وما أطبقتُ الكتاب إلا وأنا ألثم بناني على غير هدًى . ولم يكن ذلك إلاّ إجلالاً لصفحاتٍ قلبتُها وحبّاً لنفسٍ استجوبتها فعرفتها

فيامَن « ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها » ، أيتها الباحثة الحكيمة ، لماذا تصمتين ؟

تتوالى الأيام ونحن في ضلالٍ مبين . الرجلُ يجاهدُ في حربِ الاقتصادِ الدائمة . الرجل تائهٌ في مهامهِ اشغاله فاذا كتب بحثَ في العموميات ، وإذا أجال قلمهُ في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائي لانهُ يكتب بفكرهِ ، بانانيتهِ ، بقساوتهِ . والمرأة تحيا بقلبها ، بعواطفها ، بحبها

علاَّتنا مستعصيةٌ لا يشفيها إلاّ طبيب يعرفها . والمرأة بعلّةِ جنسها أدرى فهي تستطيع معالجتهُ . ولا تُطلَبُ هذه

Google PRINCETON UNIVERSITY

الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوّره لهنّ الخيالُ المخيّم بظلاله على منابت العواطف المخصبة. هذا اعتراف ساذج صادق: الفتيات لا يداعبن القلم إلاّ لينثرنَ الدموع أو ليصوّرنَ الابتسامات. وما تجاوز ذلك علاماتُ استفهامٍ متتالية وإن لم يُرَ فيها من الاستفهام شيئاً

لكنّ الزوجة والام التي أُعطيت ذكاءً وفطنةً وعلماً وشعوراً قوياً تدرك بواسطتهِ كل ما في الحياة من حلاوةٍ ومرارة — تلك تستطيعُ وضع المرأة في مركزها السامي، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة، شخصية المرأة وشخصية الرجل

فيا سيدتي،

لدينا قلوب تحترقُ ولا ندري أيّ نار تحرقها، وتلتهب شغفاً بما لا نعرفُ ماهيته، فعلّمينا أنتِ التي كنتِ فتاةً قبل أن تكوني أماً كيف نُرشدها والى اين نوجّهها!

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة، فارشدينا أي الاعشاب فاسد فنقتلعهُ وأيها الصالح فنسقيهِ ماء الرعاية والحنان!

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

قولي يا سيدتي تكلّمي !

ضمّي يدكِ البارة إلى الايدي التي تحاولُ رفع هذا الجيل من هوّة الحيرة والتردّد . ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . ان صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك ، قد يفعلُ في النفوس ما لا تفعلهُ أصوات الافكار

لا يهمنا ان تخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران خدركِ وان تحجبي هيئتكِ الشرقيـة وراءَ نقابك الشعري ، ما دمنا نسمع صوتك في صرير قلمك ونعرف منك روحك العالية

فهنيئاً لوطن يضمُّ بين بناتهِ مثيلاتكِ ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتسامتكِ ويسكبون حياتهم في قالب حياتك ! (٢)

ميّ

(٢) لم تكن الباحثة أماً ولم اكن عالمةً بذلك يوم وجهت هذه التحية اليها

الى الآنسة ميّ

إلى الكاتبة الفاضلة الآنسة ميّ [١]

قرأت تحبيذك لكتاب شقيقتي (باحثة البادية) ودعوتك اياها ان تثابر على الكتابة في موضوعها «النسائيات» واني أنوب عنها في الشكر لكِ على ما جاء في مقالك من حسن الفكرة وقوة التعبير والخيال واعتذر لعدم قدرتها على الكتابة الآن . ذلك لانها في فراش المرض منذ ثلاثة أشهر . وانها لم تنسَ قط الاهتمام بما يرقي المرأة الشرقية على العموم والمصرية على الخصوص وان كان ذلك الاصلاح على ما فينا من عيوب داعياً للقنوط أحياناً . ولعلّ الله يشفيها في القريب العاجل لتقوم بما خصّصت نفسها لهُ هذا وتفضلي بقبول شكري واحترامي حنيفه حفني ناصف

(١) نشرت في الجريدة

Google PRINCETON UNIVERSITY

الى الآنسة مي (١)

تفضلتِ فكتبتِ إليَّ كلمتك العذبة في الجريدة وكنتُ اذ ذاك بين مخالب الموت فلم يكن في وسعي ان امسك القلم لأردّ عليك وان كانت مخيلتي لم تبخل بالرد . كانت رسالتك عزاءً جميلاً لي في مرضي الطويل المؤلم وبلسماً ملطفاً لجراحي البالغة التي قلتِ انك عثرتِ عليها. آلامي أيتها السيدة شديدة ولكنني انقلها بتؤدة كأني أجرّ احمال الحديد فهل تدرين يا سيدتي ما هولي . ليس لي بحمد الله ميت قريب أبكيه ولا عزيز غائب ارتجيه ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولي عليهم غرورها فاطمع في اكثر مما انا فيهِ وليس لي حال سيء أشتكيهِ ولكن لي قلباً يكاد يذوب عطفاً واشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها وهذا علة شقائي ومبعث آلامي . ان قلبي يتصدّع من احوال هذا المجتمع الفاسد

وما لي احمل نفسي أعباء غيرها وليست بمسيطرة على هذا

(١) نشرت في الجريدة والمحروسة

Google PRINCETON UNIVERSITY

العالم ولكني كنتُ عاهدت نفسي على الاخذ بيد المرأة المصرية ويعز عليّ ان اتخلى عن هذا العهد وان كان تنفيذهُ شاقاً ومحفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي اليهِ

كنت اعتزلتُ الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا اكتفاءً بالقليل الذي كتبت من قبل ولكني كنت مللت المناداة باصلاح المرأة المصرية وثبط عزمي ما أراهُ من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخاً إلاّ عنوان نهضة كاذبة

تسألينني يا سيدتي ان أدلكِ وسط هذه الاحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجهُ وانها لحالٌ توجب الحيرة ولا ندري اي الطرق نسلك لنصل سريعاً إلى الغاية التي نقصد اليها . كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنوّرها واعدادها لان تكون زوجة صالحةً وأماً نافعةً ابناءها ووطنها ولكن لكل منادٍ بالاصلاح وجهةٌ هو موليها . فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلاّ كان راجعاً للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة

Google PRINCETON UNIVERSITY

المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند ارادة الانتقال من طورٍ مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل تكتنفهُ المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشي الابصار

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول ان الحجاب لا ينفي العلم وان اطلاق الحرية للمرأة اخيراً كان سبباً لفسادها وان اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت اختها الغربية الآن . فاي الطريقين نسلك ومن نتبع ؟ اننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهي فينا حتى اصبحنا ولا رأي لنا في انفسنا . فاذا قال لنا اختبئن حتى تدفنَّ بالحياة صوناً لكنَّ وتدليلاً كما يقول المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة

(على المدفون قبل الترب صوناً)

وكقوله في اخت ممدوحة الثانية من رثاء ايضاً :

وما رأيتَ عيون الانس تدركها

فهل حسدت عليها أعين الشهبِ

Google PRINCETON UNIVERSITY

وهل سمعت سلاماً لي ألمّ بها
فقد أطلت وما سلمت عن كثب

إذا أمرنا الرجل ان نحتجب احتجبنا واذا صاح الآن يطلب سفورنا اسفرنا ، واذا اراد تعليمنا تعلمنا فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولاجلنا أم هو يريد بنا شراً ؟ لا شك انهُ أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل ولا شك انهُ يخطئ ويصيب في تقرير حقوقنا الآن

نحن لا نأبى ان نتبع رأي العقلاء والمصلحين من الامة ولكننا لا يمكننا كذلك ان نعتقد ان كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين . ليدعنا الرجل نمحص آراءَهُ ونختار ارشدها ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا) . اننا سئمنا استبدادهُ . اننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وانما نخاف عينيهِ ولسانه فان وعدنا ان يغض بصرهُ كما يأمرهُ دينهُ وان يكن لسانه كما يوصيه الادب نظرنا في أمرنا وأمره ، والاّ فكل منا حر يفعل ما يشاء . والسلام عليكِ أيتها الفاضلة من المعجبة بكِ المثنية على ادبكِ الجم وعلمكِ الغزير

باحثة البادية

Google PRINCETON UNIVERSITY

الى باحثة البادية (١)

ليس أعزّ لدينا من لطفكِ إلاّ حزمكِ وصراحتكِ ، وليس اجمل من صدى صوتكِ الاّ فعل معناكِ . واني لأقبضُ على شجاعتي بيديّ لاعترف بأني أُحبُّ — استغفر الله واستغفركِ يا سيدتي ! — آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الانسانية وضلالها واتمنى من اعماق فؤادي ان تجد دواماً تلك الآلام منفذاً رحباً الى قلبكِ ، وأن يبقى ذلكَ القلب كريماً ليناً ينجرح لجرح الغريب ، ويبكي لبكاء المظلوم ، ويُشفقُ على المتوجع أيّاً كان . بالاختصار — عفوكِ ! عفوكِ ! — اتمنَّى لك العذاب المعنوي لانهُ النار المقدسة . أجل ، هو النار التي تطهّر ، النار التي تُحيي ، النار التي تليّن ، النار التي ترفع النفس على أجنحةِ اللهيب إلى سماء المعاني السامية والميول الرفيعة والرغبات الكريمة ، والتحمس لاجراء الاصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادىء الطيبة ، والنهوض بالاجتماع نهضةً تهتزُّ لها القلوب حميةً وطرباً

(١) نشرت في المحروسه والجريدة

Google PRINCETON UNIVERSITY

أتمنّى لكِ ذلك، ولولاهُ لما وجدنا في كتاباتكِ تلك الأنّة العميقة التي تنبّهُ الفكر وتلمسُ العاطفة في آنٍ واحد

لا انكر ان انانيتي تتكلم الآن . غير اني قلتُ ما قلتُ مسرعةً هامسة . فابتسمي لهُ ان شئتِ، والاّ فلا تصغي يا سيدتي ولا تسمعي، بل اسأليني عمّا أحسُ بهِ لاجيب اني أحمدُ الله على ابلالكِ واني أسألهُ ان يديمك سالمة . وما أغلى سلامتك لدينا!

* * *

جئتُ اسرُّ اليك أمراً وقفتُ عليهِ عند ما شهدت صدى مقالتك لدى جمهور القراء . اسمعي يا سيدتي الباحثة، وصوني سري!

رأيتُ جميعهم يتقبل اقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الاعجاب، ولكني رأيت كذلك اسيادنا الرجال — . . . أقول « اسيادنا » مراعاةً . . . بل تحفظاً من ان يُنقل حديثنا اليهم فيظنوا انالنساء يتآمرن عليهم . . . فكلمة « أسيادنا » تخمد نار غضبهم — قلت اني رأيتهم يطربون لتصريحنا بانهم ظلَمة

Google PRINCETON UNIVERSITY

مستبدون. نعم آنست ذلك في ملامح كل من قرأ مقالك أمامي من اسيادنا الرجال

فذكرتُ اذ ذاك الا ّ سرور في العالم يضاهي سرور التفاهم. فاذا شعر المرء بان هناك من يفهمهُ كان سعيداً، سواء لديه أن تُعرف منهُ صفاتهُ أو علاته لان معرفة العلات تتبعها حتماً معرفة الصفات، وان كان الخير اقل انتشاراً من الشر. وما النقائص إلا ّ فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون ان تجد لها من الضمير مهذباً فتتجاوز الحدود المعنوية التي عينتها اصطلاحات الاجتماع — اذا كانت اجتماعية — أو رسمتها علوم النفس والاخلاق، اذا كانت اخلاقية

فعملاً برغبة التفاهم، وطبقاً لنظام المباهاة، وتوصلا للاستمتاع بنتيجة هذه المباهاة وذلك التفاهم كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته في اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة. وكان وسيكون القاتل مسروراً باعلان آثامه للورى آملاً ان يجدوا فيها أعمال بطلٍ — من نوعه: وكان وسيكون السياسي جاداً في اقناع الآخرين ان دهاءهُ اقتدارٌ وسوء ظنه وروغانهُ فطنةٌ وحكمة.

Google PRINCETON UNIVERSITY

كذلك الرجل يسر ، ويرجو ، ويريد ان تشعر المرأة باستبداده ظناً منهُ ان الاستبداد هو السيادة ، وان هذه مقياس ذاتيته التي يريدها كبيرة . رضيت المرأة عن تلك السيادة أم تمرَّدت عليها في نظره سيان ، بل أظنهُ — سامحني الله ان كنت مخطئة — مؤثراً تمرّدها على إذعانها لانها كلما زاد تمردها زاد شعورهُ بالسيطرة . واشدّ الملوك فرحاً بهزّ الصولجان ، وأرفعهم للرأس كبراً وتيهاً تحت ثقل التيجان هم ذوو العروش المتداعية للهبوط .والرجل ملكٌ متداعٍ عرشهُ لان ريح الفوضى تهبُّ عليه من كل جانب، وخُطُوات الارتقاء النسائي تتوالى متكاثرةً متمكنةً مع مرور الايام

* * *

لكنهُ ملكٌ عزيزٌ

هو الاب والاخ والصديق والخطيب والزوج فاذا سقط سقطنا معهُ ، واذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات . لذلك نريدُ لهُ خيراً ونجتهدُ في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه وان نقف الى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل . نريد ان نكون متساويين في الحقوق الادبية والعمرانية

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

ما دمنا متساويين في الواجبات والمسئولية . بل ان واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ما عليهِ من مسئولية وواجب !

فياترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة ؟

ما أطيب قولك ، يا سيدتي الباحثة ، انك تشفقين على من يستحق الشفقة وعلى من لا يستحقها . الرجل من الذين يستحقون الشفقة لانهُ لا يعرف انهُ يستحقها . انهُ باستعبادنا لمنتحرٌ . ولو صرفنا النظر عن مستقبل الذرية وبحثنا في حياتهِ الفردية لوجدنا ان ما من أحدٍ يساعدهُ على التخلّص من الشوائب الشائنة ويحثهُ على انماء شخصيتهِ الغنية المخصبة الاّ نحن . كما انهُ لا يهدينا إلى واجباتنا ويضع في ضعفنا قوة الاّ هُ

الحجاب ؟ وما هو الحجاب ؟

مرحباً بهِ ما دمنا في وسطٍ لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع احترامها . ولكن كيف نلوم الرجل على كلامهِ ونظراتهِ ما دام رجل اليوم صنع امرأة الامس ؟ هكذا علّمتهُ أُمهُ وان لم تعلّمهُ ذلك فانها لم ترشدهُ الى ما يفضله ، ولا ذنب لها لان قصورها في جهلها لم يكن إلاّ نتيجة اتفاق أبيها وزوجها على جعلها عبدةً

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

لا لوم على ابناء تلك الامهات . إلاّ ان مستقبلنا صالحٌ لان حاضرنا مملوءٌ بالآمال الطيبات . النشء تتنازعهُ طبائع الوراثة ومؤثّرات العصر وعواصف الفوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية. ولكنهُ ينشد الصراط السويّ ويصغي الى صوت الاصلاح .فارفعي صوتكِ ، يا سيدتي ،ولا تيأسي! قولي بصراحتك ، واكتبي بشجاعتك : جاهري ولا تصمتي!

ان البذرة التي تزرعها اليوم يدُ الزارع تنبت سنبلة في كيانها حياة الغد وما يتبعهُ من الايام. وعند ما تخضرُّ المروج بنضرة الرجاء فتتماوج فوق غلّتها نسمات الحياة اذ ذاك سيسمع المستقبل صدًى جميلاً يردّد أبيات الامير شوقي :

صدّاح يا ملك الكنا ر ويا أمير البلبل
صبراً لما تشقى بهِ أو ما بدالك فافعلِ (٢)

فتجيب الاصداء الجديدة . لقد فعلتْ : لقد فعلت :

ميّ

(٢) هي ابيات من القصيدة الشهيرة التي وجهها شوقي بك الى باحثة البادية

Google PRINCETON UNIVERSITY

الساعة المفقودة (١)

جعلها أرباب التجارة حليةً نسائية، واتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشرى

صورةٌ مصغرةٌ للكون، كذلك كانت ساعتي. مساحتها رمزٌ للفضاء، دورتها مرسح اللانهاية، حدودها حدود الامكان، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتّبهُ الانسان، ساعاتها مقياس الاعمال، دقائقها خوفٌ من هجوم الرزايا وترقبٌ لوفود الآمال، ثوانيها دقات القلب... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تُنسَج الحياة نسجاً

فيا لهول ثواني الزمان، ويا لهول نبضات قلب الانسان!

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في احشاء الثرى: الماء والنار، فتميدُ الارض بمن عليها، وتتفطرُ أساساتها فتقذفُ البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة

(١) ننشر هذه المقالة التي ظهرت في الجريدة والمحروسة بعد الرسالة الى الباحثة بيومين أو ثلاثة. ننشرها هنا لان الباحثة ذكرتها في ردّها الآتي في الصفحات التالية

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

زفرتها القتالة فتلتهمُ صروح العمران وتفتح صدرها مرحّبةً بينها . تفتح صدرها مرحّبة فيتدحرجون الى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غالي الارواح . ولاجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش ، تدمّر ممالك ويعمر سواها ، تخرب مدائن ويشادُ غيرها ، تتجندل أفرادٌ وتفنى مجاميع فترتدي الاقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الاحزان

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمع عين ، يخون صديق ويخلص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضةٍ ونبضةٍ هناك سر الاسرار . دماءٌ داخلة الى القلب ودماء منبعثة منهُ ، تتهافت عليهِ جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية . بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان . اشتعال الفكر وخمود العاطفة ، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الغرام والحسرات العظام. قنوط ورجاء، سعادة وشقاء. هتاف الروح المسلّمة ولهاث الروح المودّعة:

***

يا ابنة أبيكِ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم الصفاء، ويهجرنا حين اللقاء. فانتِ غادرةٌ خائنة هاجرة كالزمان، يا ابنة الزمان!

كم من ساعٍ طيبات وقعتْ مرورهنّ على دوران عقربيك وفكري يناجيكِ باحاديث هداهُ وضلالهِ! ابسمَ لكِ عند السرور فاتخيلك صامتةً تبتسمين واتنهّدُ حيالك يوم الاسى فاتوسّمكِ تتنهدين وتحزنين، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين

لما أفنت قلبي وحدةُ القلب ضغطتُ بكِ على ساعدي قائلة «أنتِ الصديقة التي لا تخون». ولما مزّقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة «أنت لا تؤذين لانك لا تتكلمين». ولما أذابني الجهلُ بدعواهُ والغرور بسخافتهِ نظرتُ اليكِ قائلة «أنت عالمةٌ لذلك تصمتين»

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

وكنتِ تعزيتي!

وكنتِ زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عني وأقل اهتمامك[١] بي ! في النهار كنتِ تطوقين ساعدي فيوجعهُ أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة . وفي المساء كنتِ تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية الحان احلامي وآمالي ، وفي الصباح كنتِ أول عين أشاهدها وأول روحٍ استجوبها

كل ذلك وأنت لا تنتبهين ولا تعلمين

وها قد هجرتني . فقدتُكِ وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني !

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها :

فاذا وقعتِ في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخاً لهُ فانقلبي افعى لساعة ولا تبرحي مفرغةً فيهِ سمَّكِ حتى تصرعيهِ قتيلاً

... لكن لا ، لا ! ليس الاشرار الاّ ضحايا البشر وضحايا نفوسهم ، لو كنتِ تعلمين . وهم خليقون بالرحمة اكثر

Google PRINCETON UNIVERSITY

من الاخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير لتكوني من نصيب فتاةٍ لم تلبس في حياتها حلية . زيّني يداً شوّهت خشونةُ الخدمة جمالها ونامي على زندِ الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبُّب ! نامي هناك واسعدي ، ولو ساعةً ، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

ان كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة، اذكري لحظةً ما شهدتهِ معي من المسرات واللهفات، اذكري واحفظي ما تعرفين !

ولكن ... ألستِ ابنة الزمان الذي ننسبُ اليهِ في ضعفنا كل شيء وهو في قوّتهِ لا يبالي بشيء ؟ ترين بأي حافظة تذكرين ، وبأي ذهنٍ تتأملين؟انما علاماتك مدادٌ قد تحجّرَ ، وعقربك اصبع يشير إلى علامة يجهل منها المعنى ، وانت آلة ليس الاّ ، وان كنتِ آلة الآلات المثلى

انت ابنة الزمان الناسي ،

وأنتِ مثلهُ لا تذكرين !

مي

الى الآنسة ميّ (١)

عزيزتي ميّ

لا تستغربي يا سيدتي اني دعوتكِ « يا عزيزتي » وسأدعوكِ باسمكِ على غير معرفةٍ شخصيةٍ سابقة. أقولُ شخصية وأحدّها لاني عرفتكِ من كتاباتكِ الشعرية الجميلة من قبلُ وتعرفتُ منها بروحك العالية الهائمة في الفضاء وكأنها تبحثُ عن مستقرٍ لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقرُّ فيهِ

وتعرَّفتُ بك بالامس بل وارتبطتُ بكِ من دعائكِ عليّ بالعذاب المعنوي كأني انا المعنية بقول جميل:

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يابثينُ سبابُ
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثلهِ لكلّ مقالٍ يابثين جوابُ

وانما حاشا أن يكون دعاؤكِ عليّ سباباً وحاشا ان يكون لهُ جواب عندي من مثلهِ فاني لم أُقابلهُ إلاّ بالضحك والحلم الذي ركّب في غريزتي

(١) نشرت في المحروسة

Google PRINCETON UNIVERSITY

لماذا يا ميُّ تدعين عليَّ بالعذاب المعنوي؟ ألا انما العذاب البدني أخفّ منهُ وطأةً وأعفى اثراً . على اني جرّبت كليهما وذقتُ الامرَّين منهما معاً . تقولين « لانهُ النار المقدسة » . نعم لقد اعطاني من القداسة مقداراً اكثر مما يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس

تقولين « انهُ النار التي تطهّر . حقيقةً انهُ تلقّى وجداني بالتطهير منذ ان كان لي وجدان حتى صيّرهُ شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لاقل شيء وهذا فيهِ من الضنى والخطر ما فيهِ

تقرّرين« انهُ النار التي تحيي ». نعم يا ميُّ . انهُ أحيا روحي حتى أحرقها لانهُ كان كمصباح سيَّال كهربائهِ شديد ولكن فتيلتهُ ضعيفةٌ لا تحتمل

هو « النار التي تلين » هذا ما أبديتِ . ولكن ألا تعتقدين ان اللين قد يؤذي ولا يفيد .خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وانهُ لا يفلّ الحديد الاّ الحديد . انهُ ألانني حتى صيَّرني ماءً . وما اشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع انهُ اصل الحياة !!

يصبُّونهُ فينصب ويريقونهُ فيختفي في الارض ويضعونهُ

Google PRINCETON UNIVERSITY

في كلّ آنيةٍ معوجة وملوّنة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد بهِ من الالوان . تبخّره الطبيعة زارية هازئةً فتارة ترفعهُ الى السحاب وطوراً تقذفُ بهِ الى الارض وآونة تعاكسهُ بصعيقهافيتحوّل برداً وآونة تحمي عليها براكينها فيخرج ملتهباً وحيناً تخبث رائحتهُ بكبريتها وزرنيخها فيلعنهُ الناس اذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريءٌ . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكّراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمرّ . وهم مع ذلك لا يقيمون لهُ وزناً ولا يعترفون لهُ الجميل . وهو بلا ثمن في اكثر بقاع الارض وارخص الاشياء في اقلّها . انه مثلي يا ميُّ يذهب ضياعاً

وختمتِ حسن تعليلكِ لعذابي بقولك « انهُ النار التي ترفعُ النفس على أجنحة اللهيب الى سماء المعاني » الخ

نعم يا ميُّ انني الآن على أجنحة اللهيب ولكني لم أصل بعد الى السماء واذا وصلتها فلن يعود العالم يراني فهل يا ترى ستعجبني السماء ؟ اني أشك في ذلك . اني أول ما حفظتُ من الشعر حفظتُ المراثي وأوّلها رثاء الاندلس . وكنتُ في حداثتي اقرأُ كثيراً ديوان المتنبي واعجب بروحهِ العالية

Google PRINCETON UNIVERSITY

وبنفسهِ الكبيرة واظنهُ هو الذي عداني في ذلك وسمّم آرائي رحمهُ الله اني ألذّ كثيراً بهذه العدوى

وقد قال لي أخي مرةً بعد حديث كنتُ اشتكي لهُ فيهِ الدنيا واهلها وأقول «لعل الله يجزيني على هذا في آخرتي بالجنة» قال متهكماً «أنا واثق يا شقيقتي ان الجنة أيضاً لن تعجبكِ لانهُ لا يكاد يسرك شيء» . استغفر الله

انك يا ميُّ خالفت المألوف في التمنيات والمجاملات الفارغة وهي كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيديّ الميلاد ورأس السنة المسيحيين) . قلت «ابتسمي لهُ» أي لدعائك «ان شئت وإلاّ فلا تصغي ولا تسمعي واسأليني عمّا اهمس بهِ لأجيبك اني أحمدُ الله على ابلالكِ واني اسألهُ ان يديمك سالمة» الخ

لا يا عزيزتي اني اكره الكذب والمجاملات الفارغة ولذلك اصغيتُ وسمعتُ وابتسمتُ (حسب امرك) وتسرني جداً صراحتك حتى في الدعاء عليّ

أتدرين يا ميُّ ان ذلك اليوم الذي تمنّيتِ لي فيهِ العذاب كان فيه عيد ميلادي ايضاً واني تفاءلت خيراً بدعائكِ

Google PRINCETON UNIVERSITY

وافتتحت عامي الجديد بالضحك من تمنيك وبصداقتي لك تبعاً لذلك التمني المعكوس · اشكر لك يا عزيزتي أمانيك لي ورغباتك الصادقة واقرّ لك اني واقعة فيما رجوت لي والحمد لله ولكن يا ميّ لا أتمنى المزيد . انهُ عذاب طاهر لا يتعدّى الميل الى السكون والشعور بشيءٍ من الحزن الشعري الجميل. ولكنهُ ولله المنة والشكر لا تخامرهُ شائبة من الندم ولا من الاسف الاثيم وأخشى ان يزيد ضرام النار التي طلبتها لي فاحترق يا ميّ او اصل الى ذلك الحد الذي لا أريدهُ لنفسي ولا أظنك تريدينهُ لي

الساعة المفقودة

عجيب يا سيدتي انك تريدين عذابي وانا أُريد هناءك . أتدرين ما ذا سألقيهِ عليكِ فيفرحك ؟

اني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتها . رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لاني أحبُّ دائماً أن امسح دمعة المحزون. تعالي اليَّ لتأخذيها وتستغفريها من وصفك اياها بالغدر وبعدم الاحساس . فانها احسَّت بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمةً لمجيئك ولتعارفنا

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

انها بثّت اليّ ما كنتِ تشكينهُ اليها من العواطف والآلام . عثرتْ عليّ وعثرتُ عليها لنسكّن قلبك شرّ الفناء من الوحدة ولنؤكّد لك انك وجدت « الصديقة التي لا تخون »

حكاية الرجل

والآن فلنعد الى حكاية الرجل

عجيب جداً يا سيدتي أمر هذا المخلوق الغريب الاطوار الذي يسمى « بالرجل » . اني اعتقد انهُ كريم شجاع ولهُ قلب حساس ولكني أظنهُ (وبعض الظن اثم) انانيًّا قبل كل شيء ورأيي ان انانيتهُ وحدها هي اصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبدها لا لأ نهُ يبغضها او يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو يحبّها. ويموت لاجلها لا لأ نهُ يحبها ولكن ليلهو بها وهو في كل ذلك واسع الحيلة قوي الحجة فيقنعها فتصدقهُ وهو كذوب

أما المرأة فهي دائماً تحترمهُ وتحبهُ لانها تحبهُ صادقةً واذا كرهتهُ كرهتهُ علانيةً ولم يكن لذلك البغض من دواء .عرف ذلك ابو الطيب فقال :

Google PRINCETON UNIVERSITY

وان حقدت لم يبقَ في قلبها رضاً

وان رضيت لم يبقَ في قلبها حقدُ

هي صادقة مخلصة دائماً حتى وهي خاطئة . هي تحب لتفنى في الحب ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب. هي تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن ولكن الرجل لا يحزن الاّ ليبحث عن تعزيةٍ وسلوان

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . انها تعلم ان حريرها الذي تقدمهُ للملأ زينةً وحليةً سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منهُ

أما الرجل فهو كالنحلة يتنقل من زهرة لزهرةٍ متروّضاً وقد يطيل المكث على زهرةٍ ناضرة وانما ليمتصّ منها نضارتها وماءَ حياتها . انها تحب الازهار حيناً ولكنها تلهو بها احياناً فتتركها هشيماً . وهي تقدم للناس عسلاً فيهِ شفاءٌ لهم وشمعاً نافعاً ولكنها تعملهما لغذائها وسكنها قبل كل شيء

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأ نهُ كان ينوي ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً في حسبانهِ ان ما يزيد في قوتنا يُضعف من قوتهِ هو. لعلّهُ ظنّ ان مملكتنا واحدة ولذلك نظر الينا نظر الدعيات

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

الثائرات . وانما نحنُ نريد لهُ السعادة والمزيد من القوّة في مملكتهِ ونرجو منهُ ان يفكّ عنا الخناق في مملكتنا المستقلة التي تشدّ أزرهُ ولا تفكّر في إضعافهِ قط مهما بلغت من العزّة والقوة . اننا نتقدم إليه كأننا ساعدهُ الذي يُريدُ ان يخدمهُ لا كأننا يدٌ غريبة تريد ان تضربهُ . اننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقرّ عيناً وليعطنا ما نشاء !

وانما نحن يا ميُّ ضايقناهُ في بعض شؤون مملكتهِ حتى ظنّنا نريدُ منازعتهُ فيها . لنترك له السياسة التي يحبها وحمايتنا. واقول لك همساً « اننا لا ننفع بدونهِ ولكنهُ هو أيضاً لا ينفع من غيرنا ! ! »

ان المطالبات بحق الانتخاب وان كنّ يطلبن حقاً إلاّ انهنّ ظالمات الرجل وانفسهن معاً . لماذا يرمن مشاركتهُ في الجلوس على كراسي « البرلمان » ولا تتقدّم واحدة منهنّ صدرها للقاء كرّات المدافع ونصال الفناء في الحرب . الحق أحقّ ان يُتبع ليهنأ الرجل بمملكتهِ . اننا لا نهزُّ عرشهُ ليتداعى الى السقوط كما تقولين ولكننا نهزّهُ لنطلب منهُ . . . .

« الدستور » باحثة البادية

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

باحثة البادية (١)

مرثاة

أكتب اسم باحثة البادية فيتمثّلُ لناظري ذلك الثغرُ البسّام وذلك الوجهُ ذو السمرةِ المصرية العذبة ، واسمعُ صوتها الرخيم مردّداً كلماتٍ حلوة اللفظ لطيفة المعنى . وأضع يدي على مجموعةِ « النسائيات » فأشعرُ بالحياةِ الفائضة على تلك الفصول ، وما هي إلاّ توقُّد النفس المتوهّجة بين صفحاتها . كلُّ ما لباحثةِ البادية مملوء حياة مفيدة نافعة ، فكيف أُصدّق انّ تلك الشعلة النادرة قد خمدت ، وان ذلك الوجه الوضّاح قد اختفى وراءَ وشاح الردى ؟

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتساماً كثغرها . ولكن إذا أمعن المرءُ النظر في أعماقهما وجد بُعدَ الغورِ والكآبة المقيمة وراءَ الابتسام مما يُرى في عينيّ المفكرين وفي عينيّ المزمعين على الرحيلِ العاجل ، اولئك الذين لا تطولُ

---

(١) نشرت في المحروسة يوم دفن الفقيدة

Google PRINCETON UNIVERSITY

حياتهم اكثر من زهور الربيع فيذهبون تاركين الجوَّ حولهم معطراً بعبير مآثرهم

* *
*

إن لباحثةِ البادية مركزاً فريداً في الحركة الفكرية عندنا. بعد أن قام قاسم امين يقولُ بتحرير المرأة وباعطائها ما لها من حقوقٍ أدبية واجتماعية قامت باحثةُ البادية تؤيد كلامهُ مظهرةً أهلية المرأة وكرامتها ودرجة الارتقاء العليا التي يمكنها تسنمها. قامت هذه المرأةُ العبقرية، ابنة الرجل الكبير، تدرسُ أحوال البيئة المصرية فكان لها من ذكائها الفطري مرشدٌ امين، ومن شعورها العميق منبهٌ مخلص، ومن قلمها العربي الصحيح ابلغ ترجمان وخير رسول. رأت حاجة قومها إلى الاصلاح فصاحت صيحةً ما زال يرنُّ صداها. وظلّت تكتبُ وتخطبُ ناشدةً الاصلاح، وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي فعلت ذلك في وسطٍ ما زال رجعياً في ميولهِ، بشجاعةٍ وكفاءةٍ وتفوُّق لم ينل منها شيئاً انتقادُ الناقدين وتعنت المتحزبين

كانت شديدة الحب لقومها، شديدة الغيرة على وطنها، شديدة التألُّم لما تراهُ من علامات التأخر والانحطاط في البيئةِ

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

المصرية . ومجموع هذه العواطف من حبٍّ وغيرةٍ وألم كان يتخلّلُ كل ما تكتبهُ كأنين متواصلٍ ينقلبُ ساعة الوجع الشديد زئيراً وعويلاً . كذلك يتألّم صاحبُ العقل والقلب الكبيرين كأنما هو يتألّم عن أُمةٍ بأسرها !

* * *

لما زارتنا للمرة الأخيرة كانت ترافقها صويحبةٌ لها . فأخذت هذه تنقرُ على العود وانشدت الباحثة بصوتها الشجي هذين البيتين من الموشَّح الأندلسي المشهور :

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلاَّ حُلُما في الكرى أوخلسة المختلس

وكأنها كانت في تلك الساعة متنبئةً عن نفسها ، متنبئة بأن وجودها بيننا ليس إلاّ حُلُماً في الكرى أو خلسة المختلس ، وانها راحلة عما قريب في مقتبل العمر ونضارةِ الشباب :

ولكن موتها ليس فناء . ان امثالها يحسنون للجمهور وهي محسنة للجنس النسائي خصوصاً في هذا العصر الذى تخطو فيهِ المرأة خطوتها الامامية في سبيل الارتقاء . نحن في حاجةٍ شديدةٍ الى نساءٍ تتجلّى فيهنَّ عبقريةُ الرجال دون أن يفقدن

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

صفاتهن النسائية الجميلة من لطف العاطفة وعذوبة الخلق ، والرقةِ والدعة والاستقامة والاخلاص . كذلك كانت باحثة البادية التي برزت شخصيتُها فأعلت شأن بنات جنسها اذ ظهرت كاتبةً كبيرة ، ومصلحةً غيورة ، وامرأةً عاقلةً ، وصديقة أمينة . فشغلت في حياتنا الأدبية ، وفي حياة المرأة الشرقية عموماً ، مركزاً سامياً جليلاً قلَّما يبلغهُ غيرها

فلئن بكيت اليوم الصديقة الوفية والثغر الحلو البسام فاني أُحيّي المرأة الخالدة بمآثرها وأحني الجبهة أمام المحسنة الغيورة . ان باحثة البادية لا تموت ولا يمكن ان تموت ، وستظلُّ حسناتها باقيةً ما بقيت لغةُ القرآن . والشعلةُ التي توارت اليوم في ظلمةِ القبر هي هي التي تطلُّ من سماء البقاء منيرةً طريق الارتقاء للمعجبين بها الآسفين عليها

فوداعاً أيتها الراحلة الكريمة : لئن نزل البلى بيدكِ الرطبة فان الخلود نصيب ذكركِ وفضلكِ . سيري إلى حيث لا حجاب ولا سفور ، حيثُ النور شاملٌ والجمال مقيم : هناك يحيط بك أمثالك من الأرواح الكبيرة في دارٍ هي

Google PRINCETON UNIVERSITY

مقرُّ الذكاء والنبوغ ، فأنتِ حقيقةٌ بسكناها وهي حقيقيةٌ بأن تسكنيها

وأنا التي عرفتكِ وأحببتكِ ، مع الدموع التي أذرفها على ذكركِ تريني جاثيةً أمام ضريح ضمَّ جسمكِ الثمين لأضع عند جوانبه طاقة أزهار تُعبّر عن شكرنا لكِ . لكن الأزهار تموتُ ، أما شكرنا فخالد كفضلكِ !

مي

Google PRINCETON UNIVERSITY

تأثير باحثة البادية (١)

قضت باحثةُ البادية بعد سكوت سنوات أربع فكان موتها أفصح مقالة وابلغ موعظة . وقد كشف ذلك الظرفُ المحزن عمّا لها من مكانةٍ رفيعة في نفس الجمهور ودلّ على درجة الارتقاء العالية التي يسعُ المرأة الوطنية ان ترمي اليها

لا أدري هل نالت من الأذهان والقلوب فصول الباحثة وآراؤها وماكانت تبغيه من إصلاح أيام جهادها مثل ما نالت بعد رحيلها ؟ إنهُ ما طار نعيها حتى انتشرتْ الكآبة وعمَّ الأسف، فسوّدت أعمدةُ الصحف حزناً عليها وكثُرت فصول الثناء على فضلها . وقد اشترك في ذلك الرجل والمرأة ، والمحمدي والعيسوي ، والشاعر والناثر ، والأديب والصحافي ، حتى الذي لم يكن ليعنى بالصفحة النسائية من الأدب العصري ، وجد كلمة لهفٍ يضيفها إلى ما قرأ وسمع من كلمات الحزن والأسف

(١) نشرت في المحروسة

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

ذلك لأن مثل هؤلاء النوادر لايخصُّ اسرتهُ فحسبُ إنما تكون امتهُ بفقدهِ خاسرة . لمَّا صمت صوتُ الباحثة للمرّة الأخيرة أدرك الجمهور انّ ذلك الصوت كان شجياً ، وان القلم الذي انتزعتهُ مخالبُ الردى كان صريرهُ موسيقياً . أليس من طبيعةِ الأنام ان لايفطنوا لجمال شيءٍ وندرتهِ إلاَّ بعد الغياب الذي لا حضور وراءَهُ ؟ !

ولم يقتصر على فصول الصحف وقصائد الشعراء بل عني النساء باقامة حفلة تأبين من جهتهن بينما كان الرجال ينظّمون حفلة الرجال . فسبق هؤلاء وأقاموا حفلة الأربعين برئاسة معالي وزير المعارف ، وكانت جامعةً لكل مظاهر الجلال . فرأت اللجنة النسائية المتشكلة برئاسة حرم سعادة شعراوي باشا ان تؤجّل عملها فتعقد اجتماعاً نسائياً لمناسبة مرور العام على وفاة الفقيدة ، وان تسعى في خلال هذا العام لإيجاد أثر لذكرها الطيب في المدرسة التي تخرجت منها . ومجرّد تفكير السيدات في هذا الأمر وذاك واهتمامهنّ بكيفية تنفيذ ما حسن في تقديرهنّ دليلٌ على تغيير كبير جارٍ في النفوس

اما حفلة الرجال فقد حضرها كلُّ عالمٍ وكبير ووجيه .

Google PRINCETON UNIVERSITY

ولو كان المؤبّنون من النشء الجديد القائل بسفور المرأة لوجدنا الأمر طبعياً ، ولكنهم كان اكثرهم من ذوي العمائم ومن المطربشين الذين هم أقربُ الى حزب المحافظين منهم الى أي حزبٍ آخر. وقد فاه أحدهم بهذه الجملة الخطيرة : « ايها الرجال قولوا للنساء اننا نكرم النساء العالمات كما نكرم أعاظم الرجال »

ولكن كيف يُذهلنا ذلك وقد كان دواماً أهل الذكاء والنبوغ مفيدين بمماتهم كما في حياتهم . فاذا ما أُسبلت منهم الجفون على العيون الجامدات فكأنما النفس منهم تتقمّصُ في الأقوام باعثةً فيهم اهتماماً وتحمساً لما جاهدوا من أجلهِ طويلاً .

فهُم بالشمعةِ التي يشتدُّ لمعانها عند الانطفاء شبيهون

لمّا قامت نساء الغرب بحركتهنّ لم يؤيدهنّ فيها من الرجال الاّ آحاد وقد هزأت بهنّ منهم مجاميع . والآن وقد مرّت اعوامُ الجهاد والألم فقد استمالت الى قضيتهنّ أعلى أصوات أمريكا واوربا وأعمقها تأثيراً . أما عندنا فاذا ذُكرت الحركة النسائية ذكرنا ان الرجل كان موجدها ومؤيدها وانهُ ما زال ساعياً في تنشيطها . وقد جاءت حفلةُ الرجال لذكرى باحثة البادية أتمّ مصداقٍ لهذا الاقرار

ميّ

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

تأبين باحثة البادية (١)

سيداتي ،

لمَّا اجتمعتُ بباحثة البادية للمرّةِ الأولى في ١٩١٤ بعد تصفحِ مجموعة « النسائيات » لم استشعر بأنّهُ قدّر عليَّ ان أقف لتأبينها عمَّا قريب . يومذاك لم اشعر إلا بجاذبٍ تخطَّى بي من دورِ الاعجاب بقلمها الى دور الميل الى شخصها ،لأنها كانت من الذين خصّتهم الطبيعةُ بقوةٍ مغناطيسية تجذبُ الغريب فيفطنُ لنفسهِ وقد وجد فيها مكاناً خلياً ينتظرهُ منذ زمنٍ طويلٍ . وليس موجد تلك القوة مايسميه البشرُ جمالاً وذكاءً أو لطفاً وظرفاً بل ان مستودعها جسمٌ أجوف قائم في الجانب الأيسر من الصدر — ذلك الجسم الذي ما ذكرهُ حتى اكثر الناس طيشاً وزهواً إلاَّ وطأطأ الرأس كمن ينتبهُ لمعنًى عميقٍ من أقدس معاني الحياة

(١) خطبة القيت في الحفلة التي أقامها السيدات برئاسة حرم شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية لمناسبة مرور عام على وفاة الفقيدة

Digitized by Google Original from PRINCETON UNIVERSITY

إن عصرنا عصر الاختراع والآلات . فبالآلات هبط الانسانُ الى أعماق الماء وجعل لهُ أجنحةً تسابقُ طير السماء ، وبها استعبد عناصر الأرض وكشف اسرار الكهرباء . من البواخر العظيمة التي تحذفُ الأبعاد وتلاشي البحار الى الساعةِ الذهبية الصغيرة التي تقيسُ بها الزمان ، في كلٍّ من أحوالنا نرى الآلات ممثلةً دوراً مهمًّا . لكنَّ هذا الجسم الأجوف القائم في صدرِ الانسان ، هذا القلب البشريُّ العجيب، ما زال أتمّ الآلاتِ وأقواها. بل هو اكثر اقتداراً من أعظم القواطر الحديدية على الاطلاق اذا جعلنا المقابلة على نسبةِ الحجم الصحيحة . آلاتُ الفولاذ والحديد ، تلك الصناديد المعدنية التي تُزحزح الجبال وتُدمّر المدائن والحصون ، تملُّ العمل وتطلب الراحة ، وهذا الجبّار الصغير المخلوق من دمٍ ولحم لا يعتريهِ اعياء ولا سكون لأنَّ في وقوف حركتهِ انتهاء الحياة الجسمية ، وفي سكونهِ وراحتهِ شقاء العواطف البشرية

وما كانت قوتهُ الوحيدة في تأدية وظيفتهِ واستطراد النبض ليل نهار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة ، ومئة الف مرة في اليوم ، واربعين مليون مرة في السنة ، بل كانت قوتهُ الكبرى

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

في ذلك المعنى الملتبس الشامل الذي أطلقهُ عليهِ الثيوصوفيون والشعراء اذ جعلوهُ هيكل العواطفِ والرغبات ومنهلَ الحبِّ والاشفاق والمكارم . ليقل العلماء ما شاؤوا من أن العواطف تتولَّد في الدماغ . أما نحنُ صغار الخلائق فحسبنا شعوراً بأن في رياض القلب تُغرِّد أصواتُ الطرب وترفرفُ أجنحةُ الهناء ساعة نكون من السعداء . وان القلب منا يمسي صحراء محرقة تجولُ فيها لواعج الاحزان ويتعالى في تيهها نحيبُ الوداع والحسرات عندما نكون من التعساء . حسبنا علماً ان هذا القلب الصغير يُسيِّر العالم وان من كان كبير القلب فهو في الحقيقة قائد العالم

لقد تصلَّب قلبُ الرجل قليلاً — أو كثيراً — في حرب الاقتصاد التي مافتيء يُشهرها في ميادين الحياة ، فلحق ببعض عواطفهِ جفافٌ وتوتُّرها من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أن القلب ما زال مملكةَ المرأة ، وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمعُ القوة والدقة والكآبة والصفاء ، ويختلط التأمل بالاحلام والقنوط بالرجاء . عندما لا يتكلَّمُ من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعنَ في صوت المرأة انيناً

Google PRINCETON UNIVERSITY

كأنما هو بقيةُ زفرةٍ أو تتمةُ بكاء . وحينما يعتزُّ الرجل بادراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترينَ المرأة منحنيةً على نفسها كمن ينحني على جرحٍ بليغ ، ترينها منحنيةً على قلبها لأنَّ شيئاً يظلُّ ناعماً فيهِ . وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الابّهة والتبجيل والاعظام ، وتلك الحقيرة التي تتقاذفها عواصفُ الحاجة واليأس والهوان

كان هذا القلب القدير يتلظّى مضطَّرماً في صدر باحثة البادية على مقربةٍ من ذكائها الفطري ، ولم تكن الفاظها إلاَّ شرار وميضهِ . بهِ اختبرت البيئةَ المصرية في كثيرٍ من مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها . ولما أن هالها ما شهدت من ذلٍّ وتعاسةٍ غمست قلمها في مدادٍ انما هو سيّال قلبها الناري ، وكتبت فصولاً خالدات . ان محاسن التنميق والانشاء تُعجبُ وترضي الى حين ، لكن يا لسرعان ما تُدرج تلك المحاسن في اكفان النسيان لأن الطبيعة البشرية لاتحتملُ الاعجاب المتواصل . أما الكلام المنطلق من القلب كقطعٍ متقدةٍ فيدخلُ القلوب مباشرةً بلا وسيط ، ويمتزج

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

بها لأنهُ يُعبّر عنها ، يمتزجُ بها حتى يصير جزءاً منها يأبى التفرّق والانفصال

وكما أنها أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العللِ القومية كذلك رأت ببصيرتها النقيّة اكثر طرق الاصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي . وقارئ « النسائيات » يقفُ على خطتها الاصلاحية الرشيدة حيثُ لا يكون الرجل جائراً مستبدّاً ولا المرأة ساخطةً متمردّة ، بل يتصافى الاثنان فتصيرُ هي لهُ أخلص الاصدقاء وأوفى المساعدين ، ويُصبحُ هو لها أخلص الاصدقاء وألين المرشدين . فيسران في سبلِ الحياةِ وقد جعلهما التفاهم متغلّبين على المصاعب ، متعاونين على تبادلِ المنفعةِ والسعادة

وذلك أقصى ما ترمي اليهِ العائلةُ الاجتماعية في كلّ زمانٍ ومكان

كانت الباحثةُ زوجاً لعبد الستار بك الباسل ، واستميحكن بالوقوف قليلاً عند هذا الاسم . اذكرنَ انها كانت تكتبُ في سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ و ١٩٠٩ ، وتصوَّرن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة يوم كان القوم يرمونه

Google PRINCETON UNIVERSITY

قاسم أمين بالكفر والالحاد لأنهُ جنى هذا الاثم الفظيع الذي يدعى المناداة باصلاح المرأة :

إن اعجاب الناس بامرىء لايسلمُ من لازمٍ متعدٍّ هو انتقادهم لهُ . فاذا كان الجمهورُ شديداً على الرجل ، يحسبُ نقضهُ بعض ما بلي من العادات عدواناً لبني الانسان ، فما قولكنّ فيظهور امرأةٍ ذات رأيٍ شخصيٍّ وذاتيةٍ حرّةٍ في ذلك الوسط الرجعيّ ؟

يجبُ أن يكون الوسط راقياً جداً ليقدر الفرد الراقي والاّ أهملهُ وعدَّ نبوغهُ جنوناً ، ورأى في توجُّهِ من التقهقر والانحطاط وقاحةً وشروداً

غير أن الباحثة كانت على حكمةٍ مكَّنتها من استخراج الخير من الشر . فبدلاً من أن يغضبها تعنُّت الناقدين ، انجلتْ لها الحقيقة كما تتجلّى احياناً في لحظات الألم ففهمَت ان الطريقة المثلَى لتهذيبِ الرجل وإعلاء مداركه هي تهذيبُ المرأة واعلاء مداركها ، وان الواسطة الفريدة لجعل الشعب المصري حراً نبيلاً عظيماً هي تحريرُ الام من قيود الغباوة والخمول وافهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية

Google PRINCETON UNIVERSITY

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً

انهُ كان في وسعهِ ان يحطم قلمها باشارةٍ صغيرة ، وبكلمةٍ واحدةٍ كان يستطيعُ اسكات ذلك الصوت الفعَّال . بيد أن عبد الستار بك عربيٌّ صميم ، ولهُ من وراثتهِ الكريمة ما يذكّرهُ بما كانت عليهِ نوابغ النســاء العربيات من حريةٍ وأنفة ففاخر بأن تعيش في ظلّه من تماثلهن عزةً وبياناً . .

فليسرْ اليهِ الآن شكرُ المرأة المصرية مقروناً بآي الثناء !

أما أنتِ ، يا أم الباحثة ، فلكِ أنقى ما في القلوب من احترامٍ واجـلال ! وساعة تذهبين لزيارة حفني بك ناصف الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا ، قولي لهُ ان اسمهُ مجيدٌ مرتين : مجيدٌ بعلمه وفضله ، ومجيدٌ لأنهُ والدُ امرأةٍ مجيدةٍ !

هذا كلُّ ما أردتُ ان اقول ، ياسيداتي

وحول القلبِ الفتيّ الذي كان يذوبُ اشفاقاً على المرأة الضعيفة المعذّبة ويلتهبُ غيرةً على مصر والمصريين ، حـول الصوتِ الصامتِ الذي طالما ارتفع خطيباً والقلمِ الجامد الذي طالما تحركَ كاتباً اجتمعنا اليوم ، المسلمةُ منا والقبطية والسورية ،

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

لنحيّي أُختنا الخالدة ولنمزج ذكرها بذكرِ هذهِ الأيام المملوءة حماسةً وأحزاناً

نعم ، المرأة المصرية التي انبرتْ بالأمس تهتفُ في الجماهير هتاف الوطنية والفخار قد عقدتِ اليوم في هذهِ الجامعةِ الأهلية المباركة اجتماعاً معزّياً في كآبتهِ ، سامياً في معناهُ ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضةِ الحديثة لبنات هذا الوادي العظيم !

فليحملِ الهواءُ حديثَ اجتماعنا الى من لم تحضرهُ من أخواتنا في القاهرة ، وفي الأرياف ، وفي الثغور ، ولينقلهُ الى نساء سوريا وبغداد وسائر الاقطار العربية والاقطار الغربية التي ينشدُ نفرٌ من نزلائها أبياتاً نُظمت بلغة القرآن ! ولتردّد النساءُ اسم المرأة المصرية الكبيرة « باحثة البادية » فيكون هذا الاسم عنوان نهضتنا النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعدِ الديار واتساع البحار !

ميّ

Google PRINCETON UNIVERSITY

تنبيه . وقع في هذا الكتاب اغلاط مطبعية في الحروف والحركات لا تخفى على القارىء ولم نضع لها اصلاح خطاء لان هذا الاصلاح قلّ من يهتم به عادة

Digitized by Google PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google

Original from
PRINCETON UNIVERSITY

Digitized by Google
Original from
PRINCETON UNIVERSITY